القيم والمرجعية القيمية في التعليم الجامعي

عزمي طه السيد أحمد*

الملخص

تروم هذه الدراسة العلمية توضيح مفهوم "القيمة" الذي اعتمده الباحث فيها، وبيان أهمية القيم في الحياة الإنسانية، ومعالجة مسألة تصنيف القيم بوجه عام، ثُمَّ عرض التصنيف الذي وضعه الباحث، وأسماه: تصنيف القيم بحسب أقسام الوجود، ثُمَّ أثبتت أنَّ مصدر القيم الإيجابية (الخيِّرة) هو الله سبحانه وتعالى، وكذا الإجابة عن مسألة نسبية القيم ومُطلَقيتها، مُؤكِّدةً ثبات القيم، وتعدُّد أشكال تجسُّدها في الواقع. ثُمَّ انتقلت الدراسة إلى الحديث عن التعليم الجامعي وأهدافه العلمية والاجتماعية والحضارية والأخلاقية، وعالجت موضوع مرجعية التعليم الجامعي، وانتهت إلى أنَّ لمرجعية التعليم الجامعي جانبين: عملي ونظري (فكري)، وأنَّ المرجعية الكلية للجانب العملي هي قيمة القيم (العبادة)، وأنَّ المرجعية الكلية للجانب النظري هي النظرة الكلية للوجود (Existence View) وأنَّ المرجعيتين تتكاملان، وهذا يرجع إلى أنَّ مصدرهما واحد، هو الله سبحانه وتعالى (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ).

الكلمات المفتاحية: القيم، القيم الإيجابية، قيمة القيم، الرؤية الكلية للوجود، المرجعية القيمية.

---

* دكتوراه في الفلسفة الإسلامية، أستاذ جامعي في عدد من الجامعات الأردنية. البريد الإلكتروني: abutaha.azmi@gmail.com

تم تسلُّم البحث بتاريخ 1/ 2/ 2021م، وقُبِل للنشر بتاريخ 1/ 8/ 2021م.

السيد أحمد، عزمي طه (2021). **القيم والمرجعية القيمية في التعليم الجامعي**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 27 العدد 102، 103-140.

DOI: 10.35632/citj.v27i102.5981

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي 2021 ©

مقدمة:

يشهد وقتنا الحاضر اهتماماً بالبحث في القيم وحقيقتها وأهميتها في حياة الأفراد والمجتمعات، واهتماماً خاصاً بها في مراحل التعليم المختلفة، بما في ذلك مرحلة التعليم الجامعي؛ بُغْيَةَ الوعي الأوفى بحقيقة القيم، ودورها الـمُهِم في الحياة الإنسانية؛ الأمر الذي يؤدي في نظر العديد من الباحثين إلى انتظام هذه الحياة، والارتقاء بها إلى أعلى الدرجات الـمُمكِنة من الاستقرار، وتحقيق الخير والسعادة على المستوى الفردي والمستوى الجماعي.

ستُعالِج هذه الدراسة جانباً من جوانب البحث في موضوع القيم؛ أيِ المرجعية التي تُحدَّد في ضوئها القيم، وبيان حقيقة هذه المرجعية على المستوى العملي والمستوى النظري (الفكري). ومن ثَمَّ، ستبدأ بتوضيح مفهوم "القيم"، وبيان أهميتها في حياة الإنسان، وتعداد أنواعها (تصنيفاتها)، ومصادر اكتسابها، وتقرير إذا كانت ثابتة أو مُتغيِّرة، ومُطلَقة أو نسبية، ثُمَّ بيان المرجعية القيمية عامة في جانبها النظري وجانبها العملي، ثُمَّ عرض ما توصَّلت إليه من نتائج.

أوَّلاً: مفهوم "القيمة"

1. القيمة لغةً:

كلمة "قيمة" في اللغة العربية تدل غالباً على تقديرٍ للأمور المادية، مثل: تقييم سلعة ما بتحديد ثمنها. أمّا الكلمات المشتقة منها (مثل: القَيِّم، والقَيّوم، والقَوَام، والقِوَام، والقَويم) فلها دلالات إيجابية غير مادية.

وممّا ورد في "المعجم الوسيط": "قيمة الشي قدره، وقيمة المتاع ثمنه ...، ويقال: ما لفلان قيمة: ما له ثبات ودوام على الأمر." و"القَيّوم: القائم الحافظ لكل شيء، والقَيّوم: اسم من أسماء الله الحسنى، والقَيِّم: السيِّد، وسائس الأمر، وقَيِّم القوم: الذي يقوم بشأنهم، ويسوس أمرهم، وأمر قيِّم: مستقيم، ودين القيِّمة (المستقيم، والـمُعتدِل) " (مجمع اللغة العربية في القاهرة، 2011، مادة قام).

وورد في هذا المعجم أيضاً: "القَوَام: العدل، وفي التنزيل: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:67]. والقِوَام: قِوَام كل شيء: عماده ونظامه" (مجمع اللغة العربية في القاهرة، 2011، مادة قام).

وهذه المعاني اللغوية تُعبِّر بشكل تقريبي عن المعاني الاصطلاحية الحديثة التي يتضمَّنها مفهوم "القيمة"، وتوجد ألفاظ أُخرى عبَّرت عن بعض هذه المعاني الاصطلاحية، مثل: الحلال والحرام، وأفعال التفضيل، والألفاظ الدالَّة على ما يتمنّاه المرء وما يسعى لتحقيقه. وهذا يعني أنَّ القيم كانت تُمارَس من خلال السلوك الإنساني الفردي والجماعي، وإنْ لم توجد مباحث مُتخصِّصة في دراستها كالذي نشهده في العصر الحاضر.

2. القيمة اصطلاحاً:

تعدَّدت التعريفات الاصطلاحية لـ "القيمة"، بحسب المجال الذي تتعلَّق به. فمثلاً، عرَّف علماء النفس مفهوم "القيمة" على نحوٍ يختلف عنه عند علماء الاجتماع، وغيرها في المجالات التربوية، السياسية، الأخلاقية... وهكذا، بيد أنَّه يوجد جامع مُشترَك بينها جميعاً، يُشكِّل -في نظرنا- مفهوم "القيمة" العام الذي تندرج تحته القيم المختلفة في المجالات العديدة، ثُمَّ تمتاز هذه القيم بعضها من بعض بما يضاف إليها من سمات وخصائص ينفرد بها كل مجال من المجالات.

وقد وضعنا تعريفاً للقيمة، حاولنا فيه جمع العناصر الأساسية التي تنطوي عليها القيم. وهذا التعريف يتقاطع جزئياً مع العديد من التعريفات الـمُتداوَلة عند هذا العنصر أو ذاك، ولسنا هنا في مقام سردٍ للتعريفات المختلفة للقيمة عند الـمُحدَثين من الغربيين، أو أهل المشرق عامة، وحسبنا إيراد تعريفنا الآتي الذي سنعتمده في المسائل التي تبحثها هذه الدراسة، وهو:

"القيمة هي فكرة، أو مبدأ، أو صفة تكون محلَّ تقديرنا، وتُمثِّل معياراً نحكم به على الأشياء أو الأفعال، وتُحدِّد لنا الغاية التي نطمح إليها، أو نرغب فيها، وتُيسِّر لنا تصوُّر الحالة الأمثل والأكمل، أو التي ينبغي أنْ تكون، وهي تقوم بدور الحافز لنا على تحقيق الغاية المرغوبة، كما تقوم بتوجيه

سلوكنا باتِّجاه تحقيق الغاية التي تُمثِّلها، وتنظيم أمور حياتنا على مستوى الفرد، وعلى مستوى المجتمع" (السيد أحمد، 2015، ص201).

إنَّ النظرة المباشرة في هذا التعريف تُبيِّن عناصره التي هي أساسية وجوهرية (الذاتيات)؛ فالقيمة هي فكرة، أو مبدأ، أو صفة. وهذا يعني أنَّها أمر مستقل عن ذواتنا؛ سواء أكان واضعها الإنسان، أم خالق الإنسان. ثُمَّ هي محلُّ تقديرنا الإيجابي؛ لأهمية الدور الذي تؤديه في حياتنا، وتشير إليه العناصر الأساسية الأُخرى الـمُكوِّنة لمفهومها؛ فهي معيار نحكم به على الأفعال، أو الأشياء، أو الأشخاص. ومن دون هذه القيمة، وهذا المعيار، لا يُمكِننا إصدار أحكام مُنضبِطة على أفعال الإنسان، أو على الأشياء، ومن دونها تكون أحكامنا كلها جزافية؛ فالذي يصف إنساناً، أو قاضياً، أو مسؤولاً بالعدل، لا يُقبَل منه هذا الحكم إلّا إذا كان على معرفة ووعي بمفهوم "العدالة". وحتّى في حال تقييم الأشياء المادية عن طريق أثمانها، فإنَّ التقييم الصحيح يقوم به فقط مَنْ يعرف حقيقة هذه الأشياء، أمّا مَنْ يجهلها فسيكون تقييمه جزافاً؛ زيادةً، أو تطفيفاً.

وللقيم صلة جوهرية بالغايات التي نطمح إلى تحقيقها، أو الاقتراب من ذلك ما أمكن.[1] فمثلاً، قيمة الحرية تُمثِّل للأفراد والمجتمعات والشعوب غاية يُجاهِدون لتحقيقها، وكثيراً ما يُضحّي أُناس بحياتهم من أجل الحرية. ومن ثَمَّ، فتحقيق الحرية في المجتمع على مستوى الأفراد ومستوى الجماعة -نقصد هنا الحرية المسؤولة، لا الحرية الـمُطلَقة- يُجسِّد الحالة المثلى الكاملة التي يسعى الأفراد والمجتمعات إلى تحقيقها. ولا شكَّ في أنَّ الوعي بقيمة الحرية يساعدنا على تعرُّف الحالة المثلى، أو التي ينبغي أنْ يكون عليها حال الأفراد والجماعات. وكذلك فإنَّ الوعي بالقيم عامة (مثل: قيمة الحرية، وقيمة العدالة) يُوجِّه سلوكنا نحو تجسيد هذه القيم في واقعنا، ويُعَدُّ دافعاً وحافزاً إلى تحقيقها في الحياة؛ شرط أنْ نعي أهميتها ودورها في تنظيم أمور حياتنا كلها.

---

[1] الكلام هنا عن القيم التي تُحقِّق الخير والعمران والكمال للإنسان، وبعض الباحثين يُطلِق عليها اسم القيم الإيجابية، في مقابل القيم التي يؤدي تطبيقها إلى الشَّرِّ والشقاء والخراب، في حين يُطلِق عليها آخرون اسم القيم السلبية.

إنَّ الصفات المذكورة آنفاً عوامل رئيسية تُسهِم بفاعلية في تنظيم شؤون حياتنا، ولا سيّما صفة **المعيارية** (أيِ المعايير التي تقاس بها الأفعال والأحوال؛ قُرْباً، أو بُعْداً). ولأنَّ القيم تساعدنا على رسم صورةٍ ما ينبغي أنْ تكون عليه أحوالنا الفردية والجماعية؛ فإنَّ تجسيد القيم التي نُؤمِن بها يجعلنا نُحقِّق ذواتنا. وبتحقيق المجتمع للقيم (الإيجابية) يُحقِّق طموحه في النهوض -إذا كان بصدد النهوض- ويحقق طموحه في المحافظة على نهضته وتنميتها إذا كان متقدماً في مجال النهضة والحضارة. ومن ثَمَّ، فإنَّ الوعي بالقيم، وتجسيدها واقعاً، يُعَدُّ أحد الأركان الأساسية لقيام المجتمعات، ونهوضها، واستقرارها، والمحافظة على نهضتها وحضارتها.

ثانياً: أهمية القيم في الحياة الإنسانية

يَتبيَّن ممّا سبق أهمية القيم في الحياة الإنسانية على مستوى الفرد ومستوى الجماعة، ويُجمِع الباحثون والمسؤولون في المجتمعات -على اختلاف مواقعهم- على ذلك.

يمكن أن نرى أهمية القيم (الإيجابية) في حياة الأفراد والمجتمعات إذا غابت هذه القيم من الحياة الإنسانية، فحياة الأفراد ستسير على غير هدى، فتكون مضطربة، ومشوَّشة؛ فلا يستقيم لها حال، ولا ينتظم فيها مسار، وتغلب عليها الأهواء والشهوات، عندئذٍ ستتعارض أهواء الأفراد ومصالحهم الخاصة، فتحدث الفوضى والصراعات؛ إذ ستطغى على المجتمع النسبية غير الـمُنضبِطة والـمُنفلِتة، فتضيع هُويَّة الفرد، ويعيش حالة من الفصام والتيه في سلوكاته وتصرُّفاته مع نفسه، ومع الآخرين.

أمّا إذا كان الفرد مُلتزِماً في سلوكه بقيم إيجابية، فإنَّه سيكون مُتَّسِقاً مع ذاته، ومع المجتمع المحيط به؛ فيَسهل عليه التعامل مع الجميع، بل ويمكن التنبؤ بما سيكون عليه سلوكه في المواقف المختلفة، بعدما حدَّدت له القيم أهدافه، وبيَّنت له المعايير التي تضبط سلوكه، وجعلته يحظى باحترام العقلاء.

والإيمان بالقيم الإيجابية، وتجسيدها في سلوك الفرد، يجعل لحياته معنًى ومغزًى، بل إنه لا مبالغة في القول إنَّ معنى الحياة وقيمتها يستخلص من القيم التي يؤمن بها الفرد، فالقيم الإيجابية تساهم في ارتقاء الفرد فكرياً وعملياً، وتُقرِّبه من كماله الذي يطمح في الوصول إليه، وفي تحقيق ذاته، بما يُحقِّقه من إنجازات في ضوء هذه القيم.

والقيم من حيث هي معايير للسلوك، وضوابط له، تُعِين الفرد على ضبط جانب مُهِم من جوانب حياته، وتنظيمه؛ وهو جانب الأهواء والشهوات التي إذا أُطلِق لها العنان بلا ضوابط فإنَّها تؤذي صاحبها جسدياً ونفسياً. وقد حذَّر القرآن الكريم من الخطر العظيم الناجم عن اتِّباع الإنسان أهواءَه. قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ٧١﴾ [المؤمنون: 71]. فالقيم الإيجابية تُجنِّب المسلم هذا الخطر في حال التزم بها؛ ذلك أنَّها تمارس ضغطاً اجتماعياً ونفسياً عليه إذا حاول تجاوزها.

وبالمثل، فإنَّ للقيم أهمية كبرى على مستوى الجماعة، والمجتمع، والأُمَّة، والدولة؛ ذلك أنَّها تصبغ المجتمع بهُويَّة مُحدَّدة، ومُستمَدَّة منها (أيْ من القيم نفسها)، فيتميز المجتمع بهذه الهُويَّة عن غيره من المجتمعات، وينفرد عنها بشخصيته وسماته وطبيعته؛ ما يُؤثِّر إيجاباً في استقراره وتماسكه وتعاضده. فالقيم تَحكم توجُّهات السلوك الفردي والسلوك الجماعي؛ نظراً إلى تجسيد أفراد المجتمع القيم نفسها، وهو ما يجعل الخلافات داخِلةُ في حدودها الدنيا، لا سيَّما أنَّ المعايير والضوابط التي تُنظِّم سلوك أفراده واحدة، وهي تُمثِّل مرجعيةً ونظاماً ودستوراً يلجأ إليه هؤلاء الأفراد حين يدبُّ الخلاف بينهم.

وإذا كانت القيم تُمثِّل -في جانب منها- الحالة المثلى التي يتطلَّع المجتمع إلى بلوغها، وتُمثِّل -في جانب آخر- حافزاً لسلوك الأفراد والجماعات، لكي يصلوا إلى هذه الحالة المثلى، أو الاقتراب منها ما أمكن، فإنَّ القيم تؤدي دوراً فاعلاً في أنشطة المجتمع ومختلف مناحي حياته الاجتماعية، والإنسانية، والسياسية، والاقتصادية وغيرها؛ ما يُسهِم في تطوُّره وتقدُّمه في جميع المجالات. وما إنْ ترتبط هذه القيم بالعلم الـمُوجَّه بها، حتّى يُحقِّق أفراد المجتمع العديد من الإنجازات المادية وغير المادية، ويبدأ

مسيرة النهوض الحضاري. أمّا إذا تراكمت هذه الإنجازات (المادية، وغير المادية)، فإنَّ المجتمع يصنع لنفسه حضارة[2] (السيد أحمد، 2008، ص73–78) مُتميِّزة بتلك القيم.

وفي سياق متصل، تؤدي القيم دوراً مُهِماً في الحياة الاجتماعية استناداً إلى الثقافة السائدة في المجتمع؛ إذ هي المرجعية المعيارية لهذه الثقافة، والثقافة هنا معرفة عملية لها جانب معياري يُبيِّن كيف يُمكِن التعامل مع جوانب الوجود كلها (السيد أحمد، 2008، ص20 – 42)؛[3] فهي ليست مُجرَّد أفكار، أو فلسفات وعلوم نظرية، وإنْ كان بين هذه الجوانب والثقافة صلات وعلاقات مُهِمَّة؛ ذلك أنَّ العمل في الاتجاه الصحيح يتطلَّب الركون إلى أفكار أو آراء نظرية صائبة.

وفي هذا الجانب، تختلف الثقافات بعضها عن بعض من حيث المرجعية القيمية، وقد يَتَّفِق بعضها مع بعض في ما يخصُّ كيفية التعامل مع جزء مُحدَّد من الوجود، لكنَّ المرجعية الثقافية لكلٍّ منها هي التي تُبيِّن أوجه تمايزها من غيرها، ونضرب لذلك مثلاً أصحاب الثقافة الخاصة بالتعامل مع الخشب في مهنة النجارة؛ فهم ينحدرون من ثقافات مختلفة، ويمارسون غالباً الكيفية نفسها في قصِّ الأخشاب، وصنع أنواع الأثاث منها، لكنَّهم يختلفون في المرجعية القيمية لكلٍّ منهم؛ فالنجّار صاحب المرجعية القيمية الـمُستمَدَّة من الإسلام يختلف في عمله وتعامله -في نهاية المطاف- عن النجّار ذي المرجعية القيمية الـمُستمَدَّة من عقيدة علمانية. ومن ثَمَّ، فاختلاف المرجعية القيمية لكلٍّ منهما ينعكس على كيفية التعامل مع الأشياء.

لقد أشرنا آنفاً إلى أنَّ القيم هي العامل الحاسم في تشكيل هُويَّة المجتمع، ولهذا سعت أمريكا وحلفاؤها إلى فرض نظام العولمة على الدول والمجتمعات الأُخرى، وكان سبيلها إلى ذلك هو محاولة فرض القيم العلمانية الأمريكية عليها. بيد أنَّ هذه المحاولات باءت بالفشل في المجتمعات التي أظهرت تشبُّثاً بقيمها، ولم تُفلِح مساعي القوى العظمى في فرض قيمها على هذه المجتمعات، ولو بالقوَّة.

[2] انظر تعريفنا للحضارة في كتابنا علم الثقافة الإسلامية: مدخل.

[3] انظر تعريفنا للثقافة والثقافة الإسلامية في كتابنا علم الثقافة الإسلامية: مدخل.

لقد شاع استخدام مصطلح "الغزو الثقافي"، ومصطلح "الغزو الفكري"، واليوم أخذ يشيع استخدام مصطلح "الغزو القيمي"، وهذا ما نَلْحَظه في كتابات الـمُفكِّرين والكُتّاب عند تطرُّقهم إلى الغزو الثقافي والغزو الفكري.

وعلى كلٍّ، إذا كانت قيم المجتمع راسخة ومُتجذِّرة في سلوكات أفراده وأفعالهم، كما هو حال الشعوب العربية والإسلامية مثلاً، فإنَّها ستكون حصناً منيعاً تتحطَّم على أسواره محاولات الغزو القيمي، والغزو الثقافي، والغزو الفكري. وهذا يدفعنا إلى القول بأنَّه يتعيَّن على مجتمعاتنا العربية والإسلامية أنْ تعمل بوعي وجِدٍّ على ترسيخ قيمها؛ لمواجهة كل أشكال الغزو الذي تتعرَّض له من الدول العظمى التي تسعى جاهدة للهيمنة عليها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ثالثاً: تصنيف القيم

اختلف الباحثون والدارسون في التوصُّل إلى تصنيف مُحدَّد للقيم وأنواعها؛ ذلك أنَّ للقيم -في ما نرى- أكثر من زاوية، أو توجُّه معرفي، وهو ما يظهر جلياً في تناولها من قِبَل الفلاسفة، وعلماء الاجتماع، وعلماء النفس، وغيرهم من علماء الاقتصاد والسياسة، هذا من جانب. ومن جانب آخر، فإنَّ الباحث حين يضع تصنيفاً لأمر مُتعدِّد الجوانب أو الأجزاء، فإنَّه يضع التصنيف الذي يُعِينه - من وجهة نظره- على تحقيق غايته من بحثه وهدفه المنشود، فيكون تصنيفه إجراءً خادماً لأفكاره التي يروم تقديمها إلى الآخرين.

ولهذا يتعيَّن على الباحثين في موضوع القيم مراعاة هذين الجانبين عند تعرُّضهم لتصنيفاتها الـمُتعدِّدة، ومن ثَمَّ لا يُمكِنهم بأيِّ حالٍ أنْ يحكموا بالخطأ الـمُطلَق على تصنيف ما؛ إذ سيكون في كل منها جانب من الصواب قل أو كثر -وليس الصواب المطلق بطبيعة الحال- وذلك من وجهة نظر مَنْ يتبنّاه طالما كان أداة معينة في بيان أفكاره وتوجُّهاته وطروحاته.

ويُعَدُّ التقسيم الفلسفي التقليدي من أقدم التصنيفات العامة للقيم، وهو يتضمَّن ثلاث قيم كبرى: الحق، والخير، والجمال. أمّا قيمة الحق فتدخل فيها قيم المعرفة الحقيقية، وقيم الوجود الحقِّ.

وأمّا قيمة الخير فتدخل فيها جميع القيم الأخلاقية على مستوى الفرد ومستوى الجماعة. وأمّا قيمة الجمال فتدخل فيها جميع القيم الجمالية المادية والمعنوية، بما في ذلك القيم الفنية، علماً بأنَّه توجد صلة بين هذه القيم؛ إذ تُستخدَم في وصف بعضها لبعض، مثل قيم الخير التي توصَف أحياناً بأنَّها حقٌّ، أو جميلة. ويظهر ترابط ثالوث القيم جلياً في إشارتها جميعاً إلى قيمة عليا مُطلَقة واحدة، هي الحقُّ الـمُطلَق، والخير الـمُطلَق، والجمال الـمُطلَق في الوقت نفسه.

ومن التصنيفات الشائعة للقيم، تصنيفها بحسب الموضوعات التي تتعلَّق بها، فهناك قيم اجتماعية، وقيم اقتصادية، وقيم سياسية، وقيم أخلاقية، وقيم حقوقية (قانونية)، وقيم تربوية، وقيم دينية، وقيم جمالية، وقيم فنية، وغير ذلك من قيم الموضوعات والمجالات التي تزخر بها حياة الإنسان. ويوصَف هذا التصنيف **بالأفقي**؛ إذ تتساوى فيه جميع أنواع القيم، ولا يعلو أحدها على الآخر، وإنَّما هي أنواع قائم بعضها بجانب بعض.

والذين يقولون بهذا الرأي يرون أنَّ لكل مجال قيمه الخاصة، وأنَّ هذه القيم لا ينبغي لها أنْ تتعارض، أو تتصارع. غير أنَّ عدم التعارض أو التصارع بينها يشير إلى ضرورة هيمنة قيمة عليا تشارك فيها جميع القيم، وإلّا حدث الصراع، مثل تعارض قيمة فنية في أثناء تنفيذ عمل فني (مثل: مسرحية، وفيلم سينمائي، ولوحة فنية) مع قيمة دينية أو أخلاقية، كأنْ يتطلَّب العمل الفني تصوير بعض المشاهد الإباحية. فهنا نكون أمام تعارض أو تصادم بين القيم، فعندئذٍ، قد نتساءل: هل القيم الفنية لها علاقة بالقيم الدينية أو الأخلاقية أم لا؟ هل يتعيَّن في هذا العمل الفني الخالص أنْ تتحقَّق فيه القيمة الفنية في أوضح صورها؟ هل يجب تقديم القيم الدينية أو الأخلاقية على القيم الفنية، فيُمنَع عرض هذه المشاهد لتعارضها مع قيم الدين والأخلاق؟

والشيء نفسه ينطبق على قيم البحث العلمي حين يراد إجراء تجارب على الحيوانات، أو على الإنسان في بعض الحالات؛ إذ يتعارض ذلك (كلياً، أو جزئياً) مع القيم الأخلاقية، أو القيم الدينية. ومثل ذلك نجده في القيم الأُخرى حين تتعارض قيم أحد المجالات مع قيم مجال آخر. فالقائلون بأنَّ لكل مجال قيمه الخاصة، وأنَّه لا ينبغي أنْ تُهيمِن قيم مجال مُعيَّن على قيم مجال آخر، يلحظون

وجود صراع للقيم داخل المجتمع الواحد؛ ما يتسبَّب في حدوث مشكلات وإشكاليات قد تكون على جانب كبير من الخطورة أحياناً، وهذا ما تعانيه المجتمعات العلمانية عامة، والمجتمعات الغربية الحديثة بوجه خاص، ويظهر جلياً في النقاشات العديدة التي تدور حول القضايا المشار إليها آنفاً.

إنَّ عدم وجود قيمة عليا عامة ومُهيمِنة يُرجَع إليها لفضِّ التعارض والتصادم بين القيم المختلفة، يؤدي إلى حدوث اضطراب وفوضى في المجتمع، وهذه القيمة لا يُمكِن إلّا أنْ تكون من وضع خالق الإنسان سبحانه وتعالى، القادر وحده على تحديد الخير الحقيقي للإنسان، وبيان كيفية ذلك. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

وفي المقابل، قد تُرتَّب القيم ترتيباً **عمودياً**، أو **رأسياً**؛ ما يعني وجود قيم أدنى أو أعلى من غيرها، وأنَّ القيم الدنيا تبدو أشبه بوسائل تُعِين على تحقيق القيم العليا. ومن الأمثلة على ذلك، التصنيف الذي "يُميِّز ثلاثة أنظمة، هي: نظام القيم الحيوية، فنظام القيم الفكرية، فنظام القيم الروحية ... النظام الأوَّل يُمثِّل البنية الدنيا في كل واقع حيٍّ ... ويشتمل على مجالات أساسية ثلاثة، هي: مجالات غرائز الحياة، وغرائز التناسل، وغرائز الممارسة" (العوا، 1986، ص427). أمّا نظام القيم الفكرية فهو "نظام الإنسان، وهو يقابل المعرفة الصريحة" (العوا، 1986، ص428). ويربط بها العلوم والتقنيات. وأمّا نظام القيم الروحية فهو "النظام الرفيع الذي ينجم عن تدخُّل الضمير أو الوجدان الأخلاقي حتّى يُحقِّق الشخص رسالته، ويضطلع بمسؤولية مصيره" (العوا، 1986، ص430). وأمّا نظام القيم الحيوية فأدنى هذه الأنظمة، والأدنى ضروري للوصول إلى الأعلى.

وتوجد تصنيفات أُخرى للقيم وضعها بعض علماء الاجتماع، وبعض علماء التربية، وبعض علماء النفس، وبعض الفلاسفة. (انظر عرض موسع لبعض هذه التصنيفات، العوا، 1986، ص417-441).

والـمُلاحَظ على معظم هذه التصنيفات افتقارُها إلى التأسيس الوجودي؛ أي عدم استنادها إلى نظريات في الوجود واضحة. ومن ثَمَّ، فإنَّ تصنيف القيم الأكثر فائدة للباحثين، والأكثر شمولاً في تطبيقاته، هو التصنيف الـمُؤسَّس تأسيساً سليماً ودقيقاً على أوثق نظرية في تفسير الوجود. هذه

الملاحظة التي أوردنا هنا جعلتنا نساهم في وضع تصنيف للقيم يستند -فيما نرى- على أوثق نظرية في الوجود، وهي نظرية الخلق، والتي تعبر عنها أدق تعبير وأوجزه، القضية/ الآية: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: 16]. ونحن نُقدِّم هذه القضية هنا بوصفها من الـمُسلَّمات، وإنْ أثبتها العديد من الفلاسفة، وعلماء الكلام، وغيرهم؛ إذ لا يتَّسِع المجال للخوض في إثباتها، وما يهمُّنا هو اعتمادها في التأسيس لتصنيف مُقترَح. لقد بيَّنت هذه القضية -إجرائياً- ماهية الوجود، وألقت ضوءاً مباشراً على جانب عام جدّاً، لكنَّه -في الوقت نفسه- مُهِم جدّاً، وهو حقيقة هذا الوجود.

إنَّ لفظ "وجود" هو من أعمِّ الأوصاف؛ فلا يوجد وصف أعمُّ منه ينطبق على كل الأشياء الموجودة، وهذا اللفظ (أو الوصف) يُسمّى عند أهل المنطق جنس الأجناس، وهو لا يُعرَّف إلّا بنفسه، فنقول في تعريفه: الوجود وصف، يقال على كل موجود؛ سواء أكان وجوده مادياً حسياً، أم غيبياً لا يُدرَك بالحواس في هذه الدنيا؛ أي الغيب.

وقضية الخَلْق (اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) تُؤكِّد أنَّ الله تعالى هو الخالق، وأنَّ كل شيء موجود هو مخلوق لله سبحانه. ومن ثَمَّ، فإنَّ التقسيم الأوَّل للوجود هو: الخالق، والمخلوقات. ونقول في تفصيل هذا التقسيم إنَّ الخالق سبحانه واحد أحد لا كثرة فيه، أما المخلوقات فهي كثيرة كثرة يعسر على الإنسان إحصاؤها، إنْ لم يكن مستحيلاً، ولكنْ يُمكِن تصنيفها إلى أقسام كبيرة واسعة، وقد قسَّمنا الوجود المخلوق إلى الأقسام الآتية: **الذات** الفردية أو الأنا، والآخر الذي يشمل الناس كافةً بخلاف الذات. وفي هذا القسم دوائر مُتداخِلة عديدة، تبدأ بدائرة الأُسرة، ودائرة الأرحام والأقارب، ودوائر الجوار والحي الواحد ومجتمع البلدة ومجتمع الدولة الواحدة، انتهاءً بالمجتمع الإنساني، ويشمل ذلك الأعداء والأصدقاء على مستوى الفرد والمجتمع والدول. وكذلك يوجد **الكون الطبيعي** (السماوات، والأرض، ومَنْ فيهن)، وقسم **الأفكار** الذي تدخل فيه العلوم على اختلافها، وتوجد أيضاً **الأدوات والوسائل** (المادية، وغير المادية)، وكذلك يوجد **الزمان**، و**الغيب**.

ومن هذه المخلوقات الإنسانُ الذي فضَّله الخالق سبحانه وتعالى على كثير من خَلْقه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ

خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: 70]. والإنسان وحياته هما المقصودان في بحثنا عن القيم ومرجعيتها؛ إذ إنَّها ترتبط بالإنسان وسلوكه في الحياة في كثير من الجوانب؛ لذا سنذكر بعض المعلومات عن الإنسان وحياته؛ ما يساعدنا -إلى جانب ما ذكرناه آنفاً عن الوجود وأقسامه- على التأسيس للتصنيف الذي سنقترحه للقيم.

لقد جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض، وهذا لا يعني -في نظرنا- أنَّه خليفة عن الله في الأرض تنزيهاً لله سبحانه عن حاجته إلى خليفة، وإنَّما يعني أنَّه جُعِل في الأرض بعد مخلوق آخر كان فيها،[4] وأنَّه خُلِق ليؤدي مهمة على هذه الأرض، هي عمارتها.[5] وهذا العمران لا يتمُّ إلّا إذا انصبَّ كل سلوك الإنسان في تحقيق الغاية التي خُلِق من أجلها، وهي عبادة الله سبحانه وتعالى. وهذه الغاية حدَّدها خالق الإنسان؛ إذْ لا يُمكِن لأحد غير الله تعالى أنْ يُحدِّد (أو يعرف وحده) الغاية من خَلْقه. والعبادة هي طاعة الله تعالى بفعلِ كل ما يُحبِّه ويرضاه من أنواع السلوك والممارسات، والجُهد في هذه الطاعة (العبادة) يعود خيره إلى الإنسان نفسه، لا إلى خالقه سبحانه غير المحتاج إلى شيء؛ فهو الغني الحميد.[6] ومن ثَمَّ، فإنَّ مفهوم "الخلافة في الأرض"، و"عمارة الأرض"، و"عبادة الله"؛ كلها مفاهيم مُترابِطة ومُتكامِلة، ونتيجة تطبيقها هي تحقيق خير الإنسان، والوصول به إلى كمالاته اللائقة به بوصفه إنساناً.

أمّا الحياة الإنسانية فهي حركة الإنسان في تعامله مع جوانب الوجود كلها (الخالق، والمخلوقات)؛ ذلك أنَّه يتعيَّن على الإنسان أنْ يتعامل مع كل أجزاء الوجود؛ طوعاً أوكرهاً، وبصورة مباشرة، وغير مباشرة. فهو يتعامل **مع الخالق** بطاعته وتقواه إنْ كان مُؤمِناً، والـمُلحِد يتعامل مع الله بإنكار وجوده وخَلْقه لكل شيء. والإنسان يتعامل مع المخلوقات؛ فيتعامل **مع ذاته**

---

[4] السياقات التي وردت فيها ألفاظ "خلف"، و"استخلف"، و"خلافة" في القرآن الكريم تُؤكِّد هذا المعنى.

[5] قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴿٦١﴾﴾ [هود: 61].

[6] قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 15].

بالحفاظ على وجوده وكيانه؛ فيتعامل **مع الآخر** -في أدنى الأحوال- في دائرة الأُسرة، وفي الدوائر الاجتماعية الأُخرى؛ وكذلك يتعامل **مع الكون الطبيعي**؛ الأرض وما عليها، والسماء وشمسها وقمرها، بما في ذلك إعمار الكون؛ وهو يتعامل أيضاً **مع الأفكار** بغَضِّ النظر عن تحصيله العلمي، بما في ذلك الأخبار على اختلاف أنواعها؛ وكذلك يتعامل **مع الأدوات والوسائل** التي يستعين بها على أداء العديد من المهام، أو التي تعينه في الوصول إلى غايات يسعى لتحقيقها؛ ويتعامل أيضاً **مع الزمان**، إذ يُنظِّم أوقات أنشطته، ومراحل حياته؛ وكذلك يتعامل **مع الغيب** الذي يُنكِره الـمُلحِدون، بالرغم من وضوح وجوده؛ ذلك أنَّ كُنْه الإنسان -في مبدئه- غيب، ومآله غيب، وهو جزء صميم في وجودنا؛ أي الروح أو النفس، وعِلَّة وجود هذا العالَم غيب كذلك. وتجاهل الإنسان الغيب يجعل حياة الناس والمجتمعات قريباً من حالة الحيوانات في الغابة؛ فالغيب موضوع إيمان، ويترتَّب على هذا الإيمان سلوكات إيجابية.

والخلاصة أنَّ الإنسان يتعامل مع كل أجزاء الوجود، ويمارس أشكالاً من السلوك لا حصر لها في أثناء حياته، وهنا نقترب كثيراً من فكرة ضرورة وجود القيم في حياة الإنسان، واستنباط تصنيف لها مُؤسَّس تأسيساً وجودياً راسخاً؛ فالقيم ما هي إلّا معايير نحكم بها على أنواع السلوك الإنساني بالصواب أو الخطأ، وبالحق أو الباطل، وبالخير أو الشر، وهي تُمثِّل -بصورة ما- الحالة المثلى التي ينبغي أنْ يكون عليها سلوكنا، ونسعى للوصول إليها. ولا شكَّ في أنَّ الوعي بهذه المعاني -التي يتضمَّنها مفهوم "القيم"- يُعَدُّ حافزاً لدى الإنسان للقيام بالسلوك الذي يتجه نحو الوصول إلى هذه الحالة المثلى.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ لكل شكل من أشكال السلوكات -مع جوانب الوجود- قيماً (بالوصف الـمُتقدِّم لمفهومها) تُناظِر قسماً من أقسام الوجود؛ ما يعني وجود قيم للتعامل مع الخالق سبحانه وتعالى، وقيم للتعامل مع المخلوقات. ولـمّا كانت جوانب الوجود المخلوق (المخلوقات) مُتعدِّدة، فإنَّ أنواع القيم ستتعدَّد أيضاً، فنجد قيماً للتعامل مع الذات (الفردية)؛ أيْ تعامل الإنسان مع نفسه، وقيماً لتعامله مع الآخر في جميع الدوائر الاجتماعية، وقيماً لتعامله مع الكون الطبيعي، وقيماً لتعامله مع الأفكار، وقيماً لتعامله مع الأدوات والوسائل، وقيماً لتعامله مع الزمان، وقيماً لتعامله مع الغيب.

وإذا كانت مجالات الوجود المتقدم ذكرها يضم كل واحد منها أجزاء متعددة، فإن التعامل مع هذه الأجزاء ستكون له قيم متعددة بعدد هذه الأجزاء، فيكون هناك قيم فرعية للقيم العامة (الخاصة بكلٍّ من المجالات الكبرىٰ المذكورة آنفاً)، وكذلك وجود قيم فرعية لكلٍّ من قيم المجالات الكبرىٰ، ونقترح أنْ نُسمِّيها جميعاً عائلات القيم، ومن ثَمَّ يكون لدينا عائلة القيم في التعامل مع الخالق، وعائلة القيم في تعامل الفرد مع ذاته، وعائلة القيم في التعامل مع الآخر (في الدوائر المختلفة)، وعائلة القيم في التعامل مع الكون الطبيعي، وعائلة القيم في التعامل مع الأفكار، وعائلة القيم في التعامل مع الأدوات والوسائل، وعائلة القيم في التعامل مع الزمان، وعائلة القيم في التعامل مع الغيب.

إن تصنيف القيم إلىٰ هذه العائلات يُسهِّل أمر النظر في تفاصيل كل عائلة منها، والتعرُّف علىٰ القيم الفرعية فيها، علماً بأنَّ عائلات القيم هذه تشمل -في نظرنا- جميع جوانب السلوك الإنساني في الحياة (الدنيا).

وهذا التصنيف للقيم يقوم علىٰ صلتها بالتعامل مع الوجود، ويمكن أن نُسمّيه: **تصنيف القيم بحسب أقسام الوجود**، وتوجد تصنيفات أُخرىٰ يُمكِن إلحاقها بهذا التصنيف، بوصفها جوانب جزئية منه، مثل تصنيف القيم بحسب الموضوعات؛ أيْ تصنيفها إلىٰ قيم اقتصادية، وقيم اجتماعية، وقيم حقوقية ...؛ ذلك أنَّ هذه الموضوعات تندرج تحت مجالات التعامل مع أقسام الوجود الكبرىٰ.

صحيحٌ أنَّ هذا التصنيف كشف عن وجود قيم مُتنوِّعة ومُتعدِّدة بالتناغم مع تنوُّع أقسام الوجود وتعدُّدها، لكنَّه لا يُبيِّن كيف يُمكِن تمييز القيم الإيجابية من القيم السلبية. فواقع الحال أنَّ القيم بين الناس مختلفة عموماً، وهو ما ينعكس علىٰ تعاملهم مع جانب مُعيَّن من الوجود؛ فقد يحكم البعض بأنَّه يُمثِّل قيمة إيجابية، في حين يحكم البعض الآخر بأنه قيمة سلبية. ومن هنا يحدث التصادم والتعارض بين القيم المتبنَّاة من الأطراف المختلفة، وقد يؤول الحال إلىٰ صراع مادي واقتتال بين هذه الأطراف.

إنَّ هذا الاختلاف في تقييم السلوك الواحد (أيْ قيم التعامل مع الوجود وأجزائه) مردُّه اختلاف مُسلَّمات الـمُقيِّم واعتقاداته (أو أيديولوجيته). فعلىٰ سبيل المثال فيما يخصُّ التعامل مع الخالق، نجد أنَّ قيم الـمُؤمِن تختلف عن قيم الـمُلحِد في هذا الجانب. وكذلك الحال بالنسبة إلىٰ تعامل الفرد مع ذاته؛ فقيم من يعتقد أن الإنسان مرُكَّب مادي فقط، مختلفة عن قيم من يرىٰ أنَّه روح فحسب، ومختلفة عن قيم من يرىٰ أنَّه يجمع في كيانه بين المادة والروح. والشيء نفسه ينطبق علىٰ التعامل مع الآخر؛ فقيم مَنْ يرىٰ أنَّ الناس جميعاً أخوة في الإنسانية، مختلفة عن قيم من يرىٰ أنَّ الإنسان ذئب لأخيه الإنسان. ونجد ذلك أيضاً في التعامل مع الكون الطبيعي؛ فقيم من يرىٰ أنَّ الكون مُسخَّر للإنسان، مختلفة عن قيم من يرىٰ أن الكون عدُوٌ أو خصمٌ يتعيَّن قهره، والسيطرة عليه، والتحكُّم فيه. أمّا بالنسبة إلىٰ التعامل مع الأفكار، فقيم من يرىٰ أنَّ المعرفة الصادقة هي ما نصل إليه أوَّلاً بالعقل، مختلفة عن قيم من يرىٰ أنَّ المعرفة الصادقة هي ما نصل إليه بالحواس، ومختلفة عن قيم من يرىٰ أنَّها ما نصل إليه بالعقل والحواس، ومختلفة عن قيم من يرىٰ أنَّ مصدر المعرفة الصادقة الرئيس هو الوحي الإلهي، ومختلفة عن قيم مَنْ يرىٰ الجمع بين كل هذه الوسائل. وفي ما يختصُّ بمجال التعامل مع الأدوات والوسائل، فقيم من يرىٰ أنَّها تساعد (يُتوسَّل بها) علىٰ تسهيل حركة الحياة وحركة العمران، مختلفة عن قيم من يجعلها غاية في ذاتها. وفي مجال التعامل مع الزمان، فقيم من يرىٰ أنَّ للزمان أهمية في تنظيم شؤون الحياة وأنشطتها وتحديد الأولويات فيها، مختلفة عن قيم من لا يكترث بالزمان، ويغفل عن أهميته في الحياة الإنسانية. أمّا بخصوص التعامل مع الغيب، فقيم مَنْ يُؤمِن بالغيب، وبأنَّ له تأثيراً علىٰ سلوكنا في الحياة، مختلفة عن قيم من يُنكِرون وجود الغيب، أو يتجاهلونه.

إنَّ اختلاف القيم الـمُتقدِّم وصفه هنا لا يجعلنا نُقبِل عليه ونحن مُسلِّمون به؛ فإنّا في القيم نبحث عمّا يجب أنْ يكون؛ ما يُحتِّم علينا تعرُّف القيم الإيجابية وتمييزها من القيم السلبية، ويساعدنا علىٰ ذلك الفكرة التي يعتقد بها جميع الناس (تقريباً)، وهي تقسيم سلوك الأشخاص وأعمالهم إلىٰ قسمين فقط، هما: أعمال الخير، وأعمال الشَّرِّ، وقد أكَّد القرآن الكريم ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7-8]. ومن ثَمَّ، فلا توجد أعمال توصَف بأنَّها ليست خيراً، وليست شرّاً (محايدة)،[7] حتّى إنَّ أقلَّ قَدْرٍ من الأعمال (مثقال ذَرَّة) يوصَف بالخير أو الشَّرِّ.

لقد أشرنا آنفاً إلى أنَّ تصنيفنا الـمُقترَح للقيم (تصنيف القيم بحسب أقسام الوجود) لا يُبيِّن القيم السلبية والإيجابية؛ لذا يُمكِن إتمام هذا التصنيف بإضافة الفكرة العامة (أيْ وصف الأعمال والتعاملات؛ إمّا بالخير، وإمّا بالشَّرِّ) إلى هذا التقسيم، لنصل إلى ما نراه التقسيم الأتم للقيم وهو تصنيفها بحسب أقسام الوجود والخيرية معاً؛ ما يعني وجود قيم إيجابية (خَيِّرة) في التعامل مع الخالق، وقيم سلبية (شَرّانية) في التعامل معه، ونقول مثل ذلك عن القيم التي تختصُّ بالتعامل مع أقسام الوجود؛ فيكون وجود قيم إيجابية (خَيِّرة) في تعامل الإنسان مع ذاته الفردية، وأُخرى مضادة لها؛ أيْ سلبية (شَرّانية)، وكذلك وجود قيم إيجابية (خَيِّرة) في التعامل مع الآخر، وأُخرى سلبية (شَرّانية)، ووجود قيم إيجابية (خَيِّرة) في التعامل مع الكون الطبيعي، وأُخرى سلبية (شَرّانية)، وكذا وجود قيم إيجابية (خَيِّرة) في التعامل مع الأفكار، وأُخرى سلبية (شَرّانية)، ووجود قيم إيجابية (خَيِّرة) في التعامل مع الأدوات والوسائل، وأُخرى سلبية (شَرّانية)، ووجود قيم إيجابية (خَيِّرة) في التعامل مع الزمان، وأُخرى سلبية (شَرّانية)، ووجود قيم إيجابية (خَيِّرة) في التعامل مع الغيب، وأُخرى سلبية (شَرّانية).

---

[7] قد يقول قائل إنَّ الأعمال التي يحكم عليها الفقهاء بالمباح ليست خيراً، وليست شَرّاً، ونحن نرى أنَّها تدخل في دائرة الخير؛ لأنَّ الذي أباح فعلها أو تركها هو الله سبحانه وتعالى، فتدخل -بالضرورة- في دائرة الخير.

ويُمكِن توضيح كلٍّ من التصنيفين السابقين في الـمُخطَّطين الآتيين:

تصنيف القيم بحسب أجزاء الوجود

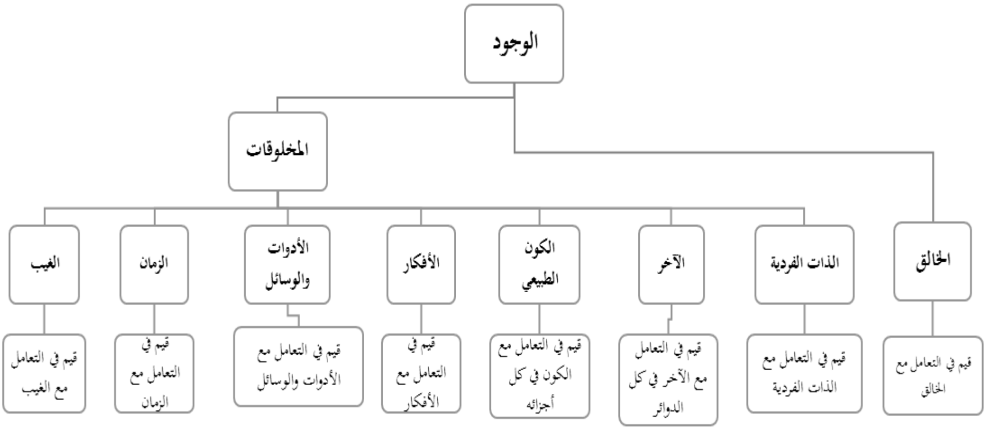

تصنيف القيم بحسب أجزاء الوجود والخيرية معاً

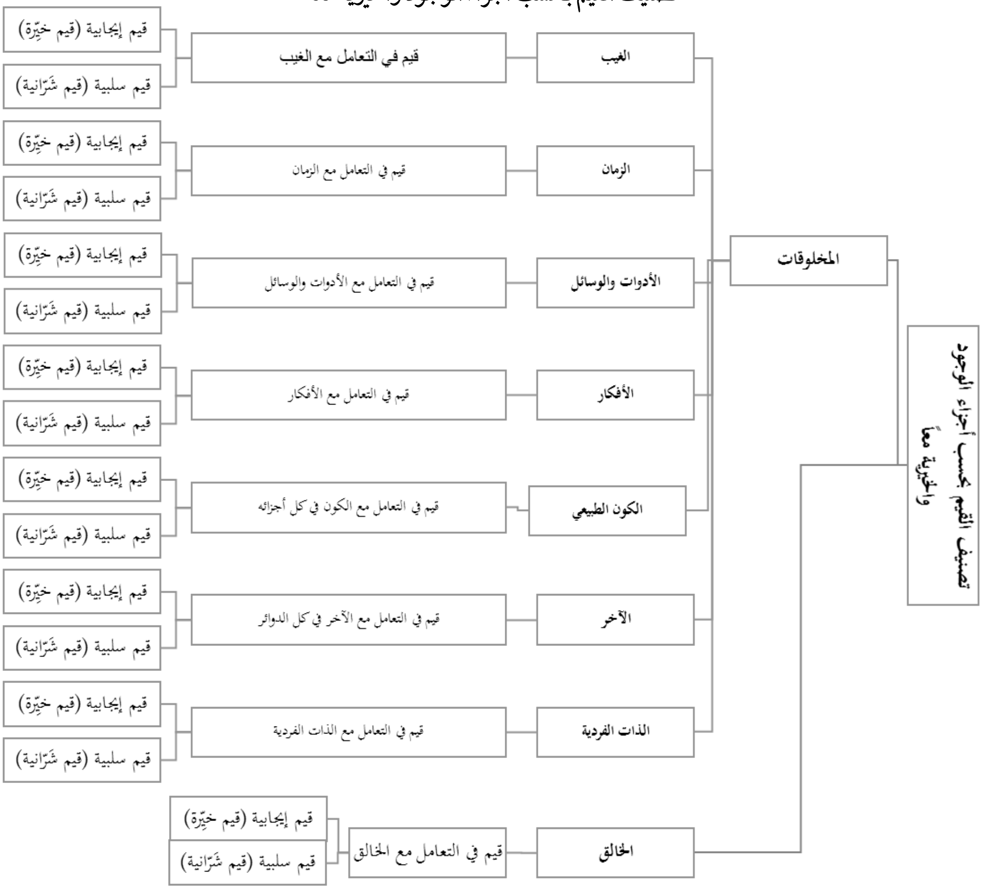

رابعاً: مصدر القيم والقيم الإيجابية (الخَيِّرة)

تُمثِّل هذه المسألة إحدى قضايا فلسفة القيم لدى الباحثين والفلاسفة الذين تعرَّضوا لبحث القيم، وأغلب هؤلاء من الغربيين. وقد ذكر عادل العوا أسماء مَنْ وصفهم بمُمثِّلي فلسفة القيم، مُستعرِضاً آراء كلٍّ منهم، وعددهم ثلاثة وعشرون فيلسوفاً، كلهم غربيون (العوا، 1986، ص109-264).

وفي ما يأتي ملخص للآراء البارزة حيال مصدر القيم عامة عند هؤلاء الباحثين، يليه اجتهادنا في موضوع مصدر القيم الإيجابية (الخَيِّرة)، وتمييزها من نقيضها؛ أيْ تمييزها من القيم السلبية (الشَّرّانية).

1. مصدر القيم عامة:

يرى الباحثون في فلسفة القيم أنَّ هذا المصدر هو أحدُ اثنين؛ إمّا أنْ يكون الإنسان مصدر القيم وواضعها ومُؤسِّسها، وإمّا أنْ يكون الله سبحانه وتعالى مصدر القيم كلها.

وهذا ما أوضحه أحد الفلاسفة الذين بحثوا في موضوع القيم، وهو لويس لافيل Louis Lavelle (ت1951م)؛ إذ قال: "لا يوجد سوى فلسفتين اثنتين ينبغي أنْ يختار أحدهما: فلسفة بروتاجوراس Protagoras (ت حوالي 420 ق. م) التي ترى أنَّ الإنسان مقياس كل شيء، ولكنَّ هذا المقياس مقياس الإنسان الخاص، ثُمَّ فلسفة أفلاطون Plato (ت348 ق. م) -وقد سار ديكارت في ركابها-، وهي ترى أنَّ الله مقياس كل شيء، لا الإنسان" (العوا، 1960، ص202).

ومِنَ الذين قالوا بالرأي الأوَّل، نيتشه F. Nietzsche (ت 1900م) الذي أرجع أصل القيم إلى الإرادة الإنسانية، وهي عنده إرادة هوجاء تريد السيطرة. ومن ثَمَّ، فإرادة الإنسان تضفي على الأشياء قيمتها. وكذلك ماكس شيلر M. Schiller (ت 1928م) الذي أرجع أصل القيم ومصدرها إلى حدس عاطفي انفعالي؛ أيِ العاطفة التي تهتم بالترجيح بين الأشياء والأمور المختلفة.

وفي المقابل، نجد مَنْ ربطوا القيم -في مصدريتها- بالنجاح العملي في الحياة الإنسانية، وهؤلاء هم البرجماتيون عامة، والذرائعيون بوجه خاص. أمّا علماء الاجتماع عامة فأرجعوا أصل القيم ومصدرها إلى الحياة الاجتماعية والمجتمع؛ فاجتماع الناس وضرورات الحياة الاجتماعية هي التي توجد القيم المختلفة لتنظيم أمور المجتمع.

إنَّ القول باعتبار الإنسان مصدر القيم؛ سواء أكان فرداً أم جماعةً، يؤدي بالضرورة إلى القول بنسبية القيم وَفقاً لأحوال الإنسان وظروف حياته وعصره، ويؤدي كذلك إلى القول بعدم ثباتها وتغيُّرها بتغيُّر الظروف والأحوال؛ ما يحول دون ظهور منظومات قيمية مُتَّسِقة، وغير مُتعارِضة، أو غير مُتصارِعة.

أمّا بالنسبة إلى الرأي الآخر الذي يُرجِع مصدر القيم إلى الله سبحانه وتعالى، فإنَّ من القائلين به أفلاطون الذي جعل الله هو المثال الأعلى (مثال الخير)، ورأى أنَّ كل الأشياء تستمد قيمتها من مشاركتها ومحاكاتها لعالَم الـمُثُل الذي على رأسه مثال الخير؛ أيِ الله.

ورأي أفلاطون هذا مُرتبِط برأيه في الوجود الذي يرى فيه أنَّ عالَمنا هذا صورة عن عالَم الـمُثُل العقلي. ومِمَّن قال بهذا الرأي، المؤمنون بالله عامة، ومُتَّبِعو الأديان الـمُنزَّلة من عند الله بوجه خاص؛ فالله عند هؤلاء جميعاً هو خالق الأشياء كلها، ومن العسير منطقياً لِمَنْ يُؤمِن بإله خالق لكل شيء وخالق للإنسان ألّا يُرجِع مصدر جميع القيم إلى الله سبحانه وتعالى.

ننتقل -بعد هذا العرض الـمُختصَر لمصدر القيم عند الغربيين- إلى عرض اجتهادنا في بيان مصدر القيم الإيجابية (الخَيِّرة).

2. مصدر القيم الإيجابية (الخَيِّرة):

بوجه عام، فإنَّ مطلب الإنسان في حياته هو السعي لتحقيق خيره في هذه الحياة. وهذا المطلب لا يتحقَّق من دون التزام الإنسان في سعيه وحركته في الحياة بقيم إيجابية (خيرية). ثُمَّ إنَّ تعرُّف القيم الإيجابية (الخَيِّرة) يحتاج إلى تعرُّف مفهوم "الخير" ومصدره، الذي إذا أضفناه إلى مفهوم "القيم" سهَّل علينا تمييز القيم الإيجابية (الخَيِّرة) من القيم السلبية (الشَّرّانية).

ونبدأ مُذكِّرين بالأساس الوجودي الأوَّل (الله خالق كل شيء)؛ أيْ وجود خالق ومخلوقات، ومنها الإنسان، وأنَّنا نبحث عن خير الإنسان، لنطرح بعد ذلك السؤال الآتي: مَنِ الذي يُحدِّد للإنسان خيره؟

فيجاب عن المطروح بثلاث إجابات مُحتمَلة: الإنسان نفسه، أو مخلوق آخر -من بين مخلوقات الله التي لا حصر لها- غير الإنسان، أو خالق الإنسان.

والذي يساعدنا على الإجابة عن هذا السؤال، ويُحدِّد لنا الاحتمال الأقرب من هذه الاحتمالات، هو تبيان الشروط التي يجب توافرها فيمَنْ يُحدِّد خير الإنسان، وبيان أيِّ الاحتمالات الثلاثة تتحقَّق فيه هذه الشروط.

إنَّ أوَّل هذه الشروط -في نظرنا- هو أن الذي يُحدِّد للإنسان خيره لا بدّ أن يعرف حقيقة الإنسان من كل جوانبه على أكمل وجه، وثاني هذه الشروط هو أن يعرف على الوجه الأكمل حقيقة الوجود الذي يتعامل الإنسان مع كل أجزاءه؛ ذلك أنَّ أفعال الخير التي توصف بالخير، أو أفعال الشَّرِّ لا تكون إلّا في بيئة اجتماعية وكونية. أمّا الشرط الثالث فهو اتِّصافه بالكمال الـمُطلَق من كل وجه؛ حتّى يكون مُنزَّهاً عن الحاجة، والهوى، والمصلحة الشخصية، وخالياً من كل نقص؛ أيْ يكون خيراً مُطلَقاً.

وإذا نظرنا في هذه الشروط الثلاثة، فإنَّنا نَلْحَظ أنَّها لا تتحقَّق إلّا في خالق كل شيء (أيِ الله سبحانه وتعالى)؛ ذلك أنَّه لا يُمكِن للإنسان أو لأيِّ مخلوق آخر أنْ يعرف حقيقة الإنسان على الوجه الأكمل -وهذا واضح في واقع الحال بالنسبة إلى الإنسان- فقد اكتسب على مَرِّ العصور معرفة غير قليلة في مقياسه، لكنَّه -في نظرنا- لم يصل في معرفة جانبه المادي (الجسد) إلّا إلى قَدْرٍ محدود؛ إذ يكتشف كل يوم نَزْراً يسيراً من هذا الجانب المادي، فكيف بعلمه حقيقة الجوانب غير المادية في كيانه؟! ومثل ذلك يقال عن معرفة الإنسان بالوجود الطبيعي، والوجود الغيبي. وقد أكَّد القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]. وكذلك يقال عن المخلوقات الأُخرى، وأعلاها مكانة، وأقربها إلى خالقها

الملائكة الذين ظنّوا أنّهم يعرفون حقيقة الإنسان حين أخبرهم سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، ثُمَّ تَبيَّن لهم أنَّ علمهم محدود جدّاً؛ إذ قالوا: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]. أمّا الشرط الثالث، فلا يتحقَّق في الإنسان المحدود في الزمان والمكان، والمحتاج والفقير إلى الكثير جداً من الأمور، ولا يتحقّق أيضاً في أيِّ مخلوق نعرفه من مخلوقات الله، أو لا نعرفه، وإنّما يتحقَّق فقط في الخالق الواحد سبحانه وتعالى؛ فهو الغني عن أيّة حاجة، والإنسان فقير إليه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]. فالله تعالى لا تنفعه طاعة الطائع، ولا تضرُّه معصية العاصي، ومُلْكه لا نهاية له؛[8] إذ هو الكامل كمالاً مُطلَقاً.

وهكذا نصل من الـمُقدِّمات المذكورة آنفاً إلى إجابة السؤال الذي طرحناه عن واضع الخير للإنسان؛ فهو الله خالق كل شيء، وخالق الإنسان.

أمّا السؤال الآتي الذي يتوارد إلى الذهن: كيف نعلم تفاصيل هذا الخير وأشكاله؟ فجوابه المعلوم عند الـمُؤمِنين بوجود الله هو عن طريق الوحي الذي نزَّله سبحانه على رُسُله، وعن طريق الوحي الـمُنزَّل على سيدنا محمد ﷺ، مُتمثِّلاً في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية (الصحيحة).

وبالرغم من هذا الاستدلال الذي قدَّمناه هنا، فإنَّه يوجد مَنْ يعتقدون بأنَّ الإنسان قادر بعقله وقدراته أنْ يُحدِّد ما هو خير له من دون حاجة إلى العون الإلهي (الوحي). ونردُّ على هؤلاء بالقول لقد قام الإنسان بتحديد ما هو الخير له بنفسه، ولكنْ من دون وجود تحديد مُتَّفَق عليه؛ إذ توجد اختلافات كثيرة بهذا الخصوص. ودارسو علم الأخلاق الفلسفي يعلمون عدد المذاهب الأخلاقية التي تتباين في هذا الشأن، ومنها: مذهب اللذَّة، ومذهب المنفعة، ومذهب الحاسَّة الخلقية، ومذهب

---

8 هذه المعاني وغيرها نجدها في الحديث الذي رواه أبو ذر الغفاري عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربِّه، أنَّه قال: "... يا عبادي: إنَّكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي: لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي إلّا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر." الحديث الرابع والعشرون من الأربعين النووية.

الضمير، ومذهب الواجب، والمذهب البرجماتي، ومذهب العلاقات الحميمة، وغيرها، وكلٌّ له رأيه في تحديد الخير، فأيُّ هذه الآراء والمذاهب يُمثِّل الخير الحقيقي للإنسان؟ إنَّ النظر في الانتقادات التي وُجِّهت إلىٰ كل مذهب منها يُؤكِّد لنا أنَّها جميعاً لا تُعبِّر عن الخير الحقيقي للإنسان، وأنَّه لا مناص إلّا بالقول إنَّ الله هو واضع هذا الخير. تعالىٰ وصدق سبحانه وتعالىٰ في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: 82]. وهذا ما نَلْحَظه علىٰ أرض الواقع.

ويتَّصِل بهذه المسألة -في ما نرىٰ- موضوعٌ تحدَّث فيه العديد من الفلاسفة والـمُفكِّرين، وهو موضوع القيم الإنسانية؛ لذا ارتأينا أنْ نُفرِد له فقرة في بحثنا هنا؛ لصلته بالمرجعية القيمية التي نبحث عنها للتعليم الجامعي.

3. القيم الإنسانية:

لن ندخل هنا في تعداد القيم الإنسانية، وحسبنا الاجتهاد في بيان خصائص هذه القيم، والشروط التي إذا توافرت في قيمة ما حكمنا بأنَّها إنسانية، وإلّا حكمنا -بكل اطمئنان- بأنَّها غير إنسانية. وهذه الشروط تتمثَّل في المعاني الآتية مُجتمِعةً:

أ. الإنسانية -كوصف لفعل أو سلوك- بمعنىٰ أنه يُلائِم فطرة الإنسان، أي ما ركب فيه من غرائز واستعدادات وُلِد بها، ويساهم في وصولها إلىٰ كمالاتها؛ فالسلوك الذي يَقمع غريزةً أو استعداداً فطرياً هو سلوك غير إنساني. فمثلاً، الحاجة إلىٰ الطعام غريزة. ومن ثَمَّ، فالتجويع الـمُتعمَّد سلوك غير إنساني.

ومن أمثلة الاستعدادات: الاستعداد للتعلُّم؛ فالتعلُّم وكل ما يُيسِّره للناس سلوك إنساني، والتجهيل سلوك غير إنساني. وهكذا حال جميع الاستعدادات التي يولَد بها الإنسان. ويجب الانتباه هنا إلىٰ أنَّ هذه السلوكات لا تكون إنسانية إذا لم تَحكمها ضوابط، وهذا يشمل الغرائز والاستعدادات.

ب. الإنسانية -كوصف لفعل أو سلوك- بمعنى أنه يؤدي إلى المحافظة على الوجود الإنساني -على مستوى الفرد ومستوى الجماعة- بحيث يقود الإنسان باتجاه تحقيق كماله اللائق به كإنسان؛ فما كان كذلك فهو إنساني، وإلّا فهو غير إنساني. فأفعال مثل: الصدقة، وإغاثة الملهوف، وكفالة اليتيم، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وما شاكلها؛ كلها تُسهِم في الحفاظ على الوجود الإنساني وبقائه، أو تكميله وترقيته والسمو به، ليصل إلى درجة عليا بوصفه إنساناً. وفي المقابل، فإنَّ أفعالاً أُخرى مثل: القتل، والاعتداء بالتعذيب، والسرقة، والغشِّ، واحتكار السلع، وأكل مال اليتيم، والرشوة، وما شاكلها؛ كلها تحطُّ من إنسانية الإنسان إذا مارسها، وتُبعِده عن السمو والكمال. وفي حال اجتنب الإنسان هذه الممارسات والأفعال السلبية كان هذا الاجتناب سلوكاً إنسانياً.

ت. الإنسانية -كوصف لفعل أو سلوك- بمعنى أنه يُلائِم الناس كافةً على اختلاف أجناسهم، وألوانهم، وأنسابهم، ولغاتهم، فضلاً عن اختلاف عصورهم وأماكنهم، ويهتمُّ بمصالحهم جميعاً في العالَم أجمع؛ فما كان كذلك فهو سلوك إنساني، وإلّا كان غير إنساني. ومن ثَمَّ، فإنَّ السلوك الذي تبرز فيه الأنانية؛ سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى المجتمع والدولة، هو سلوك غير إنساني. أمّا السلوك الذي يظهر فيه الإيثار؛ سواء أكان ذلك على مستوى الفرد، أم على مستوى الجماعة، فهو سلوك إنساني؛ لأنَّه يُوسِّع دائرة المصلحة والخير خارج دائرة الذات. فكلَّما كانت دائرة السلوك الخارج عن نطاق الذات أكبر وأوسع كانت درجة إنسانيته أكبر.

ث. الإنسانية -كوصف لفعل أو سلوك- بمعنى أنه يجعل الإنسان -كل إنسان وأي إنسان- غاية في ذاته. ويجعل الفعلُ أو السلوكُ الإنسانَ غاية في ذاته إذا كان مقصود الفعل وغايته تحقيق خير الإنسان ومنفعته الحقيقية. أمّا إذا نظر الفعل أو السلوك إلى الإنسان بوصفه وسيلة لغاية أُخرى (مثل: زيادة الربح، وزيادة الإنتاج، وتحقيق الأهواء والمصالح الـمُتنوِّعة)، فإنَّه لا يكون إنسانياً؛ إذ الإنسان في سياقه وسيلة. فمثلاً، إجراء تجارب على الإنسان لاختبار قدرة سلاح ما، أو معرفة ما يترتب على استخدامه من نتائج هو سلوك غير إنساني؛ لأنَّ الإنسان هنا عومِل فقط بوصفه وسيلة؛ سعياً للوصول إلى غايات أُخرى.

إنَّ هذه الشروط مُجتمِعة -في ما نرى- يجب أنْ تتحقَّق في أيّة قيمة حتّى تكون إنسانية[9] (السيد أحمد، 2015، ص69-105).

أمّا بالنسبة إلى علاقة القيم الإنسانية بالقيم الخَيِّرة أو القيم الإيجابية، فمن غير المُمكِن وجود قيمة إنسانية تتحقَّق فيها الشروط السابقة، ولا تكون قيمة خَيِّرة (إيجابية)؛ فالقيم التي تُلائِم الناس كافةً، وتلقى منهم إجماعاً على ذلك، لا بُدَّ أنْ تكون خَيِّرة، ويؤدي تحقُّقها في حياتهم إلى تحصيل الخير لهم.

ولـمّا كانت القيم الخَيِّرة (الإيجابية) من وضع الخالق سبحانه، فإنَّ القيم الإنسانية -بالشروط الـمُتقدِّمة- لا يضعها (أو يُحدِّدها) الإنسان، وإنَّما يضعها خالق الإنسان الذي يعلم مَنْ خلق. ويُؤيِّد هذا الرأي اختلاف الناس في تحديد القيم الإنسانية، وتحديد شروطها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82].

وهذه النتيجة تنقلنا إلى مسألةٍ ما ينبغي أنْ تكون عليه القيم الخَيِّرة الإيجابية والقيم الإنسانية، من حيث الثبات أو التغيُّر، ومن حيث الإطلاق أو النسبية.

خامساً: القيم من حيث هي نسبية أو مُطلَقة

إنَّ القول بنسبية القيم يعني أنَّها تصلح لظروف وأحوال مُتغيِّرة، أو تناسب فقط أناساً، أو مجتمعاتٍ مُعيَّنةً. ومن ثَمَّ، فالقيم النسبية قد تتعدَّد حتّى يصبح فيها لكل فئة من المجتمع قيم مُعيَّنة تناسبها، ورُبَّما يشمل ذلك كل فرد فيه، لكنَّ هذه القيم تختلف عن قيم الآخرين كثيراً أو قليلاً، بل إنَّ قيم مجتمع ما أو فرد من أفراده قد تتغيَّر خلال زمن قصير، فلا تظل ثابتة طوال الوقت.

[9] طبَّقْنا في بحث آخر هذه الشروط مُجتمِعةً على قيم العولمة التي يَدَّعي أصحابها أنَّها قيم عالمية إنسانية، ولم نجد في أيٍّ منها ما حقَّق هذه الشروط مُجتمِعةً؛ إذ وجدنا أنَّه اختلط فيها الإنساني بغير الإنساني، وأنَّ الجانب غير الإنساني هو الطاغي (السيد أحمد، 2015، ص69-105).

هذا الرأي بنسبية القيم يقول به كل من يرى أن الإنسان هو مصدر القيم في المجتمع، من علماء الاجتماع، وفلاسفة اللذَّة، وفلاسفة المنفعة، والفلاسفة البرجماتيين، والوضعيين، والواقعيين عموماً، ويتَّفِقون على أنَّ ما يكون خيراً في مجتمع ما في زمن مُعيَّن قد يصبح شَرّاً في المجتمع نفسه بعد مدَّة من الزمن، وهذا ما يحدث اليوم في المجتمعات الغربية.[10]

لقد جعل أصحاب هذا الرأي للقيمة وجوداً مستقلاً -نوعاً ما- بحيث يُمكِن الحديث عنها بوصفها موجودات مستقلة، لكنَّهم أتبعوها -في الوقت نفسه- للإنسان، ليس فقط في تغيُّر أحواله البيئة والاجتماعية، وإنَّما في تغيُّر أهوائه ومصالحه الشخصية ورغباته الـمُتعدِّدة. ولولا وجود القوانين والتشريعات في المجتمعات التي تأخذ بهذا الرأي لكانت هذه المجتمعات تعاني حالة من الاضطراب والفوضى، ويَصدق فيها قول **توماس هوبز** (ت1679م): "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان".

أمّا وصف القيم بالـمُطلَقة فيعني عدم التزامها بقيود الزمان، والمكان، والجماعات، والأفراد. وخلافاً لأصحاب الرأي السابق، فإنَّ القائلين بهذا الرأي لا يُرجِعون مصدر القيم إلى الإنسان، أو إلى المجتمع وأحواله، وإنَّما يُرجِعونه إلى الله سبحانه وتعالى، أو -باصطلاح أفلاطون- إلى مثال الخير، أو إلى الإرادة الخَيِّرة للإنسان. وبوجه عام، فإنَّ أتباع الأديان الإلهية يرون أنَّ الله الخالق هو المصدر الـمُطلَق للقيم.

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنَّ ثبات القيم وإطلاقها من كل القيود يفضي إلى استقرار المجتمعات، والحدِّ من الاختلافات والخلافات والصراعات، ليس فقط بين فئات المجتمع الواحد وأفراده، وإنَّما بين المجتمعات المختلفة كذلك.

---

[10] على سبيل المثال، كانت العلاقة السليمة بين الرجل والمرأة في الغرب -حتّى الحرب العالمية الثانية تقريباً- هي العلاقة ضمن إطار الزواج، ثُمَّ تبدَّلت بعد ذلك، فلم يعد بعض رجال الغرب يرون ضرورة الزواج لضبط هذه العلاقة، وظهر ما يُسمّى الصداقة الاختيارية، التي عَدَّها كثير منهم أمراً مشروعاً، أو صائباً. ومثل ذلك ما جرى من تشريع بعض المجتمعات للعلاقات المثلية، وعَدِّها حقّاً شخصياً بعدما كانت شَرّاً.

ويوجد فريق ثالث حاول الجمع بين الرأيين بالقول إنَّ القيم مُطلَقة في جوانب، ونسبية في جوانب أُخرىٰ، كأنْ يقال: إنَّ القيم مُطلَقة بوصفها مبادئ نظرية، لكنَّها نسبية في جانبها العملي.

ولسنا هنا في مقام تفصيل هذه الآراء عند أصحابها، وإنَّما نحن بصدد محاولة استجلاء حقيقة هذه المسألة، فنقول:

لا ينبغي أنْ يغيب عنّا أنَّ القيم -علىٰ اختلافها- لا بُدَّ أنْ تتجسَّد في واقع الحياة الإنسانية، وأنشطة الإنسان الـمُتعدِّدة وسلوكاته؛ ما يعني وجوب اتِّخاذها شكلاً مُعَيَّناً تتجسد فيه عملياً علىٰ أرض الواقع الذي به يتحقَّق معنىٰ القيم.

وهذا يعني أنَّ الشكل العملي الذي تتجسَّد فيه القيمة ليس هو القيمة نفسها، وإنَّما هو شكل وتعبير عملي عن القيمة.

ومن هنا نرىٰ أنَّ القيمة من حيث هي فكرة، أو مبدأ، أو صفة -كما تَقدَّم في تحديدنا إيّاها- يُمكِن أنْ تتشكَّل في أكثر من شكل أو صورة، من دون أنْ يُخِلَّ ذلك بالقيمة، أو يُغيِّرها.

ولعلَّ إيراد بعض الأمثلة يزيد هذه الفكرة وضوحاً، ونبدأ بمثال معروف، هو قيمة إكرام الضيف[11] (تدخل في مجال قيم التعامل مع الآخر)؛ فتجسيد هذه القيمة في واقع الناس له أشكال عديدة، منها إعداد وليمة من لحم الضأن، أو من لحم الدجاج، أو من لحم الحصان،[12] وقد يقتصر الأمر علىٰ كِسْرة من رغيف خبز، أو شِقِّ تمرة. فهذه وغيرها أشكال تتجسد فيها قيمة الكرم، وهي تتغيَّر بتغيُّر الأحوال والظروف والإمكانات.

ومثال آخر هو اللباس، والقيمة فيه -بحسب السياق الإسلامي- ستر العورة للرجال والنساء (تقع في مجال قيم تعامل الإنسان مع ذاته)؛ إذ تتجسَّد هذه القيمة في ارتداء أنواع من

---

[11] أكَّد هذه القيمة رسول الله ﷺ، فيما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: "مَنْ كان يُؤمِن بالله واليوم الآخر فليُكرِم ضيفه." رواه البخاري ومسلم.

[12] في كازاخستان يُكرِمون الضيف العزيز بذبح حصان أو فرس له.

اللباس مختلفة في أشكالها وتصاميمها وألوانها، ما دامت تتحقَّق فيها الشروط العامة لستر العورة.

ومثال آخر (يقع في مجال التعامل مع الآخر) يتصل بإدارة الشؤون العامة في المجتمع، بما في ذلك السياسة، وهو قيمة الشورى. وبتطبيق مفهوم "المخالفة"، فإنَّ الشورى تعني عدم استئثار الفرد المسؤول باتِّخاذ القرارات، والإسلام لم يُحدِّد شكلاً واحداً لتجسيد هذه القيمة في واقع الحياة الإنسانية، وترك ذلك للظروف والأحوال التي تناسب هذا الشكل أو غيره؛ فقد تكون الشورى بتكوين هيئة استشارية من أهل الرأي أو أهل الحلِّ والعقد في المجتمع، أو بإجراء انتخابات وتشكيل برلمان، أو بعمل استفتاء، أو إعداد دراسات علمية، أو غير ذلك ممّا يُحقِّق قيمة الشورى، ويُجسِّدها واقعاً عملياً.

والشيء نفسه ينطبق على القيم الأُخرى، مثل: قيمة العدل، وقيمة الإحسان، وقيمة التعاون (على البرِّ والتقوى)، وقيمة برِّ الوالدين، وقيمة التقوى (في مجال التعامل مع الله الخالق)، وغير ذلك من القيم الـمُعتبَرة في السياق الإسلامي؛ إذ تتجسَّد كلٌّ منها في عِدَّة أشكال تختلف باختلاف أحوال الناس والمجتمعات.

والخلاصة أنَّ القيم في السياق الإسلامي، من حيث هي فكرة، أو مبدأ، أو صفة، إنَّما هي قيم مُطلَقة ثابتة في كل زمان ومكان؛ لأنَّ مصدرها الله سبحانه وتعالى، لكنَّ الأشكال والصور التي تتجسد فيها القيم عديدة ومُتغيِّرة بتغيُّر المكان والزمان والأحوال، مع بقاء القيم التي تُمثِّلها ثابتة.

لقد تقدَّمت الإشارة إلى أنَّ ثبات القيم يؤدي إلى استقرار الحياة الإنسانية الاجتماعية، ويُعارِض التمييز العنصري الذي يُحارِبه الإسلام، وأنَّ الثبات في القيم والمرونة الواسعة في تجسيدها يفي بمطلب التغيُّر المكاني والزماني والاجتماعي في أحوال الإنسان.

سادساً: المرجعية القيمية في التعليم الجامعي

1. المقصود بالتعليم الجامعي:[13]

التعليم الجامعي هو مرحلة مُتقدِّمة من مراحل التعليم تقوم به الجامعات. وتأتي هذه المرحلة -كما هو معلوم- بعد إتمام الطالب المرحلة الثانوية العامة، وتُمثِّلها الجامعات التي هي أماكن التعليم العالي؛ أيِ التعليم الـمُتخصِّص في مختلف فروع العلم. وفيها يبدأ الطالب اختيار تخصُّص ما من بين تخصُّصات علمية عديدة، وتتركَّز جهوده بدايةً على اكتساب مزيد من العلم في مجال تخصُّصه، وصولاً إلى آخر منجزات العلم وتطوُّراته في مجال التخصُّص، وذلك بقدر طاقته والظروف الأُخرى حوله. أمّا آخر مراحل التعليم الجامعي فهي مرحلة الدراسة لنيل شهادة الدكتوراه.

ولأنَّ العلوم في عصرنا الحاضر تخطو خطوات متسارعة؛ فقد اضطرت الجامعات إلى التوسُّع لمواجهة هذا التقدُّم ومتابعته في مختلف حقول العلم، فازداد عدد الكليات الجامعية، وعدد الأقسام العلمية، لا سيَّما بعد منتصف القرن العشرين الميلادي، وما يزال ذلك مستمراً حتّى يومنا هذا.[14]

ويمتاز التعليم الجامعي من التعليم العام بميزة التخصُّص والتخصُّص الضيِّق، الذي له إيجابيات وسلبيات؛ فمن إيجابياته تيسير الإسهام في تقدُّم العلم في مجال التخصُّص الضيِّق جدّاً، ومن سلبياته حصر ذهن الـمُتخصِّص وعقله في مجال علمي ضيِّق جدّاً يصعب معه التواصل العلمي مع التخصُّصات الأُخرى القريبة من المجال العام لتخصُّصه؛[15] ما يُعَدُّ اليوم مشكلة بحاجة إلى إعادة نظر وعلاج ما أمكن إلى ذلك سبيلاً.

---

[13] ما نورده هنا عن التعليم الجامعي هو أساساً نتيجة خبرة شخصية طويلة في التعليم الجامعي.

[14] نذكر -مثلاً- أنَّه لم يكن للعلوم السياسية أقسام خاصة حتّى بدايات ستينيات القرن الماضي، وأنَّ مواد هذه العلوم كانت تُدرَّس في الجامعات الغربية والعربية في ثلاثة أقسام، هي: الفلسفة، والتاريخ، والقانون. ثُمَّ استقل علم السياسة بتخصيص أقسام له في الجامعات (منذ عام 1964م تقريباً)، إلى أنْ صارت له كليات تضمُّ أقساماً مُتخصِّصة. ومثل ذلك حدث للعلوم الإنسانية، والعلوم الإدارية، وغيرها.

[15] طرحْتُ سؤالاً على بعض الزملاء الـمُتخصِّصين في فروع علم الفيزياء: هل يفهم أحدكم ورقة علمية كتبها زميل في القسم، مُتخصِّص في فرع (ضيِّق) آخر؟ فكانت الإجابة بالنفي؛ بحُجَّة أنَّ لكلٍّ منهم تخصُّصاً مختلفاً.

2. أهداف التعليم الجامعي:

يوجد أكثر من هدف يُتوقَّع من التعليم الجامعي تحقيقه في ما يخصُّ الطلبة والمجتمع، وهذه أبرز الأهداف:

أ. الأهداف العلمية:

- تأهيل الطلبة في مختلف العلوم، ومواكبة ما يتوصَّل إليه العلم في مجال تخصُّصاتهم في الجانبين: النظري، والعملي (التطبيقي).

- ممارسة البحث العلمي، وتشجيعه على مستوى الطلبة، ومستوى أعضاء هيئة التدريس، ومستوى الباحثين الـمُتفرِّغين ضمن مؤسسة الجامعة.

- نشر البحوث العلمية الأصيلة -ما أمكن- في كتب، ودوريات علمية مُتخصِّصة.

- مراجعة المناهج الدراسية وتطويرها لمواكبة الجديد في العلوم والتغيُّرات في الحياة، ومراعاة ما بين العلوم من علاقات تكاملية.

- اعتماد اللغة العربية لغة أُولى في التعليم الجامعي بالجامعات العربية أولاً، ثُمَّ بالجامعات الإسلامية -ما أمكن-؛ حفاظاً على الهُويَّة الثقافية للتعليم والطلبة.

- تعليم الطرائق والأساليب التي لها تعلُّق بمناهج التفكير الصحيح، والبحث العلمي، والتفكير النقدي، ومعاييره.

- ترسيخ المبادئ والمهارات الخاصة بالحوار والتفاهم العلمي مع الآخر.

ب. الأهداف الاجتماعية:

- ترسيخ القيم الاجتماعية الإيجابية (الخَيِّرة) لدى الطلبة، وتخليصهم من القيم الاجتماعية السلبية (الشَّرّانية).

- تعزيز مفهوم "المواطَنة" لدى الطلبة، وترسيخ الهُويَّة الثقافية الوطنية العربية الإسلامية في نفوسهم.

- الإسهام في تحقيق العدالة الاجتماعية وتعزيزها بالوسائل المناسبة، بما في ذلك الشورى، والديمقراطية.

- إعداد القوىٰ البشرية اللازمة لسدِّ حاجة المجتمع من الوظائف والمهن المختلفة.
- إسهام مخرجات التعليم الجامعي في تحقيق التنمية الشاملة والمستدامة في مختلف المجالات.
- خدمة المجتمع -ما أمكن- بالتعاون مع مؤسساته المختلفة.

ت. الأهداف الحضارية:

يُقصَد بها إسهام التعليم الجامعي في إنشاء حضارة عزيزة قوية. (للكشف عن مفهوم الحضارة، انظر: السيد أحمد، 2015، ص59-66). وهذا يتطلَّب توافر رؤية استراتيجية مُوجَّهة بعقيدة إيجابية، إلىٰ جانب علم نظري وعملي مُكتسَب، ثُمَّ علم منتج محلياً غير مستورد، وكذلك إنفاق مالي سخي، وقبل ذلك ومعه إرادة جماعية حُرَّة، وقوَّة تحمي هذه الإرادة وتدعمها. فالتعليم الجامعي يُسهِم أولاً في عنصر العلم، ثُمَّ في عنصر توضيح الرؤية الاستراتيجية وترسيخها. أمّا عنصر الإنفاق المالي فهو مسؤولية مُشترَكة بين الدولة ومؤسسات المجتمع الاقتصادية، ويُسهِم التعليم الجامعي (الجامعات) بقدر منه. وفي ما يخصُّ عنصر الإرادة الحُرَّة، فإنَّ التعليم العالي يُسهِم في نشر الوعي بهذه الإرادة وتشكيلها. أمّا القوة الحامية لهذه الإرادة وللنشاط الحضاري فأساسها المجتمع عامة، والدولة بوجه خاص.

ث. الأهداف الأخلاقية:

لا تُثمِر الأهداف الوارد ذكرها آنفاً إلّا إذا تحقَّقت عن طريق سلوكات وتعاملات خَيِّرة؛ أيْ كانت محكومة بقيم إيجابية خَيِّرة؛ فقيم الخير هي أشبه بالسياج الذي يحيط بكل سلوك، وكل سلوك ينبغي أنْ يكون داخل هذا السياج. وقد أفاد أحد الباحثين الغربيين في فلسفة القيم وهو الفيلسوف الفرنسي لويس لا فيل بأنَّ "القيمة الأخلاقية هي قيمة القيم ... [وأنَّ] التخلُّق ينفذ إلىٰ صميم سائر القيم بلا استثناء، ويهبها الصفة التي تكون بها قيماً" (العوا، 1986، ص437).

وتأسيساً علىٰ ذلك، يُمكِن إجمال الأهداف الأخلاقية للتعليم الجامعي في ترسيخ القيم الإيجابية (الخَيِّرة) التي تضبط سلوك العاملين في التعليم الجامعي (الأساتذة، والطلبة) في تعاملهم مع جوانب الوجود. أمّا السبيل إلىٰ تحقيق ذلك فيكون بأساليب مُتعدِّدة (مباشرة، وغير مباشرة)، أهمها القدوة الحسنة.

3. المرجعية القيمية للتعليم الجامعي:

يسعىٰ التعليم الجامعي لتحقيق أهداف علمية، واجتماعية، وحضارية، وأخلاقية؛ ما يُحتِّم أنْ تكون السلوكات والتعاملات المختلفة التي تُحقِّق هذه الأهداف مُتكامِلة ومُتَّسِقة، ويعضد كلٌّ منها الآخر، ولا يُعارِضه.

وإذا كان لزاماً ضبط هذه السلوكات والتعاملات بقيم تضبط كل سلوك وتعامل منها، وتحكمه، وتُوجِّهه، فلا بُدَّ أنْ تكون هذه القيم -في السياق الإسلامي، وما ينبغي أنْ يكون- إيجابية خَيِّرة. ولكيلا يقع تعارض أو تناقض بين هذه القيم العديدة؛ يجب أنْ تتوافر علىٰ قيمة كلية لها صفة الخيرية، وتكون بلفظ آخر قيمة القيم كلها.

وهذه الأهداف لا بُدَّ أنْ تنطلق من رؤية كلية للوجود، كما قال بذلك كثير من الفلاسفة والـمُشتغِلين بالفكر التربوي، الذين أطلقوا عليها اسم النظرة الكلية للعالَم World View، وهي عندهم "المرجعية النهائية" (ملكاوي، 2020، ص535). وبحسب تعريف عبد الوهاب المسيري، فـ: "هي الفكرة الجوهرية التي تُشكِّل أساس كل الأفكار في نموذج مُعيَّن ... والمبدأ الواحد الذي تُرَدُّ إليه كل الأشياء، وتُنسَب إليه ... هي الـمُطلَق المكتفي بذاته" (ملكاوي، 2020، ص534). ورؤية العالَم -بحسب السياق الإسلامي- في نظر فتحي ملكاوي: "هي الرؤية الكلية للعالَم الطبيعي والاجتماعي والنفسي، والهُويَّة الـمُميِّزة لنا التي تُشكِّلها هذه المرجعية، فهي التي تُحدِّد: مَنْ نحن؟ وماذا نريد؟" (ملكاوي، 2020، ص565).

ومن التعريفات الغربية لمفهوم "النظرة الكلية للعالَم"، تعريف ديفيد نايجل David Naugle: "رؤية لله، وللكون، ولعالَمنا، ولأنفسنا مُتجذِّرة في قلب الإنسان بوصفها مُرتكَزاً لعبادتنا، وروحانيتنا، وأفكارنا، ومعتقداتنا، ومحبوباتنا، واتجاهاتنا، وقراراتنا، وأفعالنا" (Naugle, www.dbu/naugle/pdf/worldview).

وبالنظر في التعريفات الواردة آنفاً، والتعريفات الأُخرىٰ لهذا المصطلح، يُلاحَظ أنَّها -في جُمْلتها- تتضمَّن رؤية للوجود كله (الخالق، والمخلوقات)، مع تفاوت في تحديد عناصر هذه الرؤيا؛

إذ بعضها لا يُدخِل الله ضمن رؤيته. ولهذا، وانسجاماً مع سياق هذا البحث ومصطلحاته (الـمُتقدِّم ورودها هنا) ومُنطلَقاته الإسلامية، فإنَّه يُمكِننا أنْ نُطلِق على الرؤية الكلية التي نبحث عنها – بوصفها مرجعية فكرية نظرية- اسم الرؤية الكلية للوجود (خالقاً، ومخلوقاتٍ) Existence View.

والآن سنبحث عن قيمة القيم التي ستكون مرجعاً لجميع السلوكات العملية في التعليم الجامعي، وعن المرجعية الكلية النظرية (الفكرية) لجميع السلوكات النظرية في التعليم الجامعي، بحسب الـمُنطلَقات الإسلامية.

أ. قيمة القيم (القيمة المرجعية الكلية):

قبل البحث عن المرجعية الخَيِّرة للقيم في التعليم الجامعي، سنبحث أولاً عن المرجعية الخَيِّرة العامة لكل القيم، أو ما يُسمّى قيمة القيم؛ ذلك أن هذه القيمة الكلية حتى تستحق هذا الوصف، لا بدَّ أن تكون ظاهرة وسارية في كل القيم الجزئية في عائلات قيم كل قسم من أقسام الوجود. وإذا كان مصدر القيم الإيجابية (الخَيِّرة) هو الله سبحانه وتعالى، فلا بُدَّ أنْ يكون سبحانه مصدر قيمة القيم (هي أيضاً قيمة). وإذا كان الهدف الأسمى للإنسان في حياته هو تحقيق خيره وكماله، وكان تحديد ذلك الخير لا يكون إلا من الله سبحانه من خلال طاعته والالتزام بأمره ونهيه، وكان هذا الالتزام والطاعة هو معنى عبادة الله ومفهومها، وإذا كانت العبادة هي الغاية من خلق الله الإنسان. وهو قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ۝٥٦﴾ [الذاريات:56]، وكان خير الإنسان وكماله رهناً بتحقُّق هذه الغاية؛ كانت النتيجة التي نصل إليها من كل هذه المقدمات هي أن العبادة هي الخير، وأنَّ الخير هو العبادة (السيد أحمد، 2017، ص31-54).

ولا يكون كل سلوك أو تعامل للإنسان (جليلاً كان، أو بسيطاً) خيراً إلّا إذا كان عبادة لله سبحانه وتعالى، عندئذٍ تصبح العبادة هي القيمة الكبرى، أو قيمة القيم. وإذا كانت القيم تحكم على أشكال سلوك الإنسان وتعامله مع جوانب الوجود، كانت النتيجة النهائية هي أنَّ العبادة هي قيمة القيم لكل جوانب سلوك الإنسان وتعاملاته العملية في الحياة بلا استثناء؛ أو بلفظ آخر القيمة المرجعية الكلية. وإذا كان السلوك والتعاملات في التعليم الجامعي جانباً من سلوك الإنسان

وتعاملاته مع جوانب الوجود، فهذا يعني أنَّ العبادة هي المرجعية لجميع أنواع السلوك والتعاملات العملية في التعليم الجامعي (كل ما يقوم به الأساتذة، والطلبة، وغيرهم من العاملين في التعليم الجامعي).

وبتوضيح عام نقول: إذا وُجِد في التعليم الجامعي سلوك أو تعامل لا تتجسَّد فيه هذه القيمة الكلية (أيْ طاعة الله، وفعل ما أمر به)، فإنَّه لن يكون خيراً حقيقياً، وإنْ بدا لبعض الناس أنَّه خير.

أمّا تعرُّف تفاصيل هذه القيمة الكلية فيكون بالرجوع إلى كتاب الله، وسُنَّة رسوله محمد ﷺ، علماً بأنَّ العلوم الشرعية بحثت -وما تزال تبحث- في هذه التفاصيل بطرائق من التناول مختلفة.

ب. المرجعية الكلية النظرية (الفكرية) للتعليم الجامعي:

المرجعية هي ما يُرجَع إليه، أو المرجوع إليه في المنازعات بين الناس (ملكاوي، 2020، ص533). وهذا يعني أنَّ المرجوع إليه هو بمنزلة الحاكم على الأمور، الذي يُمثِّل الحقَّ، والحال المثلى، والخير؛ لذا يجب أنْ يكون المرجوع إليه معلوماً لكل مَنْ يَنشد الحق والحال المثلى والخير؛ سواء كان ذلك في مجال التعليم الجامعي، أو في غيره من مجالات الحياة، ومن هنا تأتي أهمية المرجعية (أو المرجوع إليه).

وللمرجعية مستويات عديدة، منها المرجعية الكلية أو النهائية (ملكاوي، 2020، ص533)، وهي المرجوع إليها في كل تعاملات الإنسان مع الوجود عامة، ويُطلِق عليها كثير من الباحثين اسم النظرة الكلية للعالَم World View، وقد تقدَّم القول بأنَّنا نرى تسميتها النظرة الكلية للوجود Existence View، وأنَّ المرجعية الكلية للوجود هي مرجعية للسلوك والتعاملات النظرية (الفكرية)، وأنَّها تتضمن المعرفة الكلية (غير الـمُفصَّلة) بحقيقة الوجود (خالقاً، ومخلوقاتٍ)، وعناصرها الرئيسة هي: الله، والإنسان، والكون الطبيعي (عالَم الشهادة)، وعالَم الغيب، والحياة الإنسانية.

أمّا المرجعية الكلية النظرية (الفكرية) للتعليم الجامعي فهي -بالضرورة- جزء من النظرة الكلية للوجود (تتعلَّق بجانب من الوجود، هو التعليم الجامعي)، لكنَّها لا تتعارض مع أيٍّ من عناصرها، حتّى إنَّه يُمكِن اعتبار هذه المرجعية في التعليم العالي المرجعيةَ الكلية للوجود.

مصدر المرجعية الكلية للوجود

في معرض البحث عن المرجعية الكلية للوجود، لن نشير إلى آراء الباحثين الغربيين والمسلمين –على وجاهتها–، وحسبنا كتاب الله الذي يُمثِّل الحقَّ الـمُنزَّل من عنده سبحانه؛ لنتعرَّف هذه المرجعية، وسنبدأ بإيراد الآيات الكريمة التي تُرشِدنا إليها، وتُبيِّنها.

– قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾ [آل عمران:109].

– قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود: 123].

لقد أشارت الآية الأُولى إلى الكون الطبيعي (السماوات، والأرض)، أو إلى العالَم الطبيعي، وهو عالَم الشهادة، في حين أشارت الآية الثانية إلى عالَم الغيب. وبذلك جمعت هاتان الآيتان عالَمي الشهادة والغيب، وأكَّدتا أنَّ الله تعالى هو المرجعية الكلية والنهائية لكل الأمور والأحداث التي تجري في هذين العالَمين معاً (إذ هو سبحانه وتعالى خالق عالمي الغيب والشهادة).

– قال تعالى: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : 48].

– قال تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾ [الأنعام: 164].

أكَّدت هاتان الآيتان أنَّ الله ربنا[16] سبحانه وتعالى هو المرجوع إليه في الآخرة؛ ليُعلِمنا ما كنّا فيه مختلفين في هذه الحياة بخصوص آرائنا ومعتقداتنا وسلوكنا.

– قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء:59].

في هذه الآية الكريمة، تكرَّر تأكيد أنَّ الله تعالى، ورسوله ﷺ هما المرجعية في النزاعات. وإذا كان الرسول لا ينطق عن الهوى، وما يأتي به هو وحي يوحى به إليه من عند الله، وهو الـمُبلِّغ عن الله

[16] نُذكِّر هنا أنَّ الله هو الربُّ؛ فالله خالق كل شيء، والربُّ لكل شيء ذات واحدة (الله ربُّ العالمين). انظر توضيحاً للفرق بين مفهوم "الألوهية" ومفهوم "الربوبية"، في كتابنا: **ليتفقهوا في الدين**، ص36–37.

الـمُبيِّن لمراده في ما أتى به، فإنَّ الله تعالى هو المرجعية الكلية النهائية التي يُرجَع إليها في منازعات البشر واختلافاتهم.

- قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: 83].

في هذه الآية الكريمة، تكرَّر تأكيد مرجعية الله تعالى والرسول ﷺ، مع زيادة أُولي الأمر. وأُولو الأمر -في ما نرى- هم الذين يأمرون الآخرين ويُرجَع إليهم من حُكّام، أو علماء، أو مسؤولين، أو مُربّين، لكن هذه الفئات ليست كلها ضمن المرجعية التي تُردُّ إليها الخلافات والمنازعات، وإنَّما بعضهم وهم القادرون منهم على استنباط الأحكام -الكامنة- في المرجع (القرآن الكريم) الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ (الذين يستنبطونه منهم).

ومن ثَمَّ، فكل هذه الآيات تُؤكِّد أنَّ الله تعالى هو المرجعية الكلية للوجود. ولكنْ، كيف يكون الله سبحانه تعالى كذلك؟ وكيف يكون تعرُّف هذه المرجعية وتفاصيلها؟ لا شكَّ في أنَّ جواب ذلك يكون بالرجوع إلى الكتاب الحكيم، والسُّنَّة النبوية. قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 3].

لقد بيَّن الوحي الإلهي الخاتم الحقائق الكلية لعناصر الوجود الكبرى (الله، والإنسان، وعالَما الشهادة والغيب، والحياة الإنسانية)، وقد وصفْنا ما ورد في القرآن الكريم خاصة، والسُّنَّة الشريفة عامة بأنَّه حقائق؛ لأنَّها جاءت من عند خالقها الذي يعلم مَنْ خَلق. وجميع هذه الحقائق -باستثناء فكرة الخَلْق العامة التي يُمكِن إثباتها عقلاً- هي غيب لا يملك الإنسان الوسائل والقدرة على إدراكها.

والخلاصة أنَّه إذا وُجِد في التعليم الجامعي أفكار تتعارض مع هذه الحقائق الكلية لأيٍّ من عناصر الوجود، فإنَّ المرجعية الكلية النظرية تتدخَّل لترفض هذه الأفكار، وتُطالِب بالبحث الجادِّ للوصول إلى ما يتَّفِق مع هذه المرجعية؛ إذ هي حقٌّ من عند الحقِّ سبحانه.

خاتمة:

عرضنا -في ما تقدَّم- مفهوم "القيم"، وتصنيفها، والقيم الإيجابية (الخَيِّرة) في ضوء اجتهادنا المبني – في الدرجة الأولى – على مُنطلَقات إسلامية، أوَّلها قضية أنَّ الله خالق كل شيء، آملين أنْ يكون هذا الجهد المحدود نافعاً ومُيسِّراً لفهم موضوع القيم والمرجعية القيمية عامة، والمرجعية القيمية للتعليم الجامعي بوجه خاص، ومُعِيناً مُسهِّلاً لمتابعة البحث فيه.

وقد انتهت هذه الدراسة إلى أنَّ لمرجعية التعليم الجامعي جانبين؛ عملي، ونظري (أو فكري)، وأنَّ المرجعية الكلية للجانب العملي هي قيمة القيم (العبادة)، وأنَّ المرجعية الكلية للجانب النظري هي النظرة الكلية للوجود Existence View. وقد رأينا أنَّ هاتين المرجعيتين لا تنفصلان، وإنَّما تتكاملان، ويعضد أحدهما الآخر؛ لأنَّ الذي حدد القيمة الكلية (العبادة) والنظرة الكلية للوجود (أيْ حقيقة الله، والإنسان، وعالَمي الشهادة والغيب، والحياة الإنسانية) هو الله سبحانه وتعالى (خالق كل شيء).

والحقيقة أنَّ موضوع القيمة الكلية، وموضوع النظرة الكلية للوجود، بحاجة إلى بحث خاص مُفصَّل -نوعاً ما-، وإلى تقديم أمثلة على تطبيقها في مجال التعليم الجامعي، ونرجو -إنْ أنسأ الله تعالى في الأجل- أنْ يُعِيننا على ذلك؛ ليكون تكملةً لهذه الدراسة البحثية، أو جزءاً ثانياً منها.

المراجع:

السيد أحمد، عزمي طه (2008). **علم الثقافة الإسلامية: مدخل**، عمّان: المؤسسة العربية الدولية للنشر والتوزيع.

السيد أحمد، عزمي طه (2015). **الوجه الآخر للفلسفة: مدخل معاصر**، إربد: عالم الكتب الحديث.

السيد أحمد، عزمي طه (2015). **مدخل إلى الثقافة الإسلامية**، عمّان: (د.ن).

السيد أحمد، عزمي طه (2015). **هموم ثقافية في عصر العولمة: دراسات فلسفية تأصيلية**، إربد: عالم الكتب الحديث.

السيد أحمد، عزمي طه (2017). **ليتفقهوا في الدين**، عمّان: وزارة الثقافة.

العوا، عادل (1960). **القيمة الأخلاقية**، دمشق: مطبعة جامعة دمشق.

العوا، عادل (1986). **العمدة في القيم**، دمشق: دار طلاس.

مجمع اللغة العربية في القاهرة (2011). **المعجم الوسيط**، ط5، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

ملكاوي، فتحي حسن (2020). **الفكر التربوي الإسلامي المعاصر: مفاهيمه ومصادره وخصائصه وسبل إصلاحه**، فرجينيا-عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

References:

Al-ʿAwwa, A. (1960). *Al-Qīmah al-Akhlāqiyyah.* Damascus: Maṭbaʿat Jāmiʿat Dimashq.

Al-ʿAwwa, A. (1986). *Al-ʿUmda fī al-Qiyam.* Damascus: Dār Ṭallās.

Al-Sayyid Ahmad, A. (2008). *ʿIlm al-Thaqāfah al-Islāmiyyah: Madkhal.* Amman: al-Mu'assasah al-ʿArabiyyah al-Dawliyyah li al-Nashr wa al-Tawzīʿ.

Al-Sayyid Ahmad, A. (2015). *Al-Wajh al-'Ākhar li al-Falsafah: Madkhal Muʿāṣir.* Irbid: ʿĀlam al-Kutub al-Ḥadīth.

Al-Sayyid Aḥmad, A. (2015). *Humūm Thaqāfiyyah fī ʿAṣr al-ʿAwlamah: Dirāsāt Falsafiyyah Ta'ṣīliyyah.* Irbid: ʿĀlam al-Kutub al-Ḥadīth.

Al-Sayyid Ahmad, A. (2015). *Madkhal ila al-Thaqāfah al-Islāmiyyah*. Amman: (D. N.).

Al-Sayyid Ahmad, A. (2017). *Li Yatafaqqahū fī al-Dīn*. Amman: Wizārat al-Thaqāfah.

Majmaʿ al-Lughah al-ʿArabiyyah fī al-Qāhirah. (2011). *Al-Muʿjam al-Wasīṭ* (5th ed.). Cairo: Maktabat al-Shurūq al-Dawliyyah.

Malkawi, F. (2020). *Al-Fikr al-Tarbawī al-Muʿāṣir: Mafāhīmuh wa Maṣādiruh wa Khaṣā'iṣuh wa Subul Iṣlāḥih*. Virginia, Amman: International Institute of Islamic Thought.

Naugle, David. *World View: Definitions, History, and Importance of a concept*, (www3.dbu/naugle/pdf/worldview)

Values and Value Reference in University Education

Azmi Taha El-Sayed Ahmad

Abstract

This study aims to elucidate the concept of "value" as adopted by the author, and to highlight the importance of values in life. It seeks to address the issue of value classification in general, presenting a specific classification of values developed by the author, with categories that follow ontological divisions. Besides demonstrating that the source of positive (good) values is God Almighty, it deals with the question of the relativity and absoluteness of values, confirming the invariability of values, and the multiplicity of the forms of their actualization in reality. Moreover, the study discusses university education and its scientific, social, civilizational, and moral goals, as well as its frame of reference. It concludes that the frame of reference for university education has two aspects: practical and theoretical (intellectual), and that the overall reference for the practical is the *value of values* (worship), while the one for the theoretical is the holistic view of existence. The study also concludes that the two aspects of reference are complementary, indicating that their source is one, God Almighty, Creator of everything.

Keywords: Values, positive values, the value of values, holistic vision of existence, value frame of reference